



وَحَدِيثٌ عَنْ فَلْسَفَةِ الرُّوحْ



ترجمة

إسكندر حمدان



ترجمات إبداع

ستيفان زفايغ

نيتشه

وَحَدِيثٌ عَنْ فلسفة الروح

ترجمة : إسكندر حمدان

الكتـــــاب: نيتشه وحديث عن فلسفة الروح
اسم المـــؤلف: ستيفان زفايغ
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
ترجمة الكتاب: إسكندر حمدان
الطبعـــــة: فبراير 2021
رقم الإيـــداع: 3072 / 2021
الترقيم الدولي: 7 - 353 - 779 - 977 - 978
الموقـــــع: www.ibda3eg.com

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

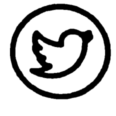
العنوان: 10 ش هدى شعــــراوي، وســـط البــــلد، القاهـــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com



dar__ibda3



ibda3-tp



dar__ibda3

ستيفان زفايغ

نيتشه

وَحَدِيثٌ عَنْ فلسفة الروح

ترجمة: إسكندر حمدان



عندما يتحدّث زفايغ عن نيتشه

في فترةٍ أصبحَ فيها "زفايغ" أحد أكثر الكتّاب شهرة، ينتظر القرّاء إصداراته بفارغ الصّبر، هو أحد أكثر المؤلّفين المترجم لهم، في أوروبا، والعالم أجمع، وجّه اهتمامه، إلى السّير الذّاتية لعظماء الفكر والأدب، الأقرب إلى قلبه، مهملا القصّة وباقي الألوان الأدبية. اختار أن يكتب السّير التي اعتبرها شخصيا أكثر أهمّية من النّوفيلات، والفترة الزّمنية التي بدأ فيها كتاباته تلك تسلّط النّور على هذا التّوجّه. فقد كانت فترة سياسية عصيبة، الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، والتي شهدت في أوروبا، وفي ألمانيا والنّمسا خاصّة تصعيدا وتعصّبا للحركات القومية.

السّؤال الذي يطرح نفسه تلقائيا هو، لماذا، رغم اهتمامه بالفلسفة بقدر اهتمامه بعلم النّفس وخبايا الرّوح، اختار في تلك الفترة بالذّات أن يكتب عن نيتشه دون غيره، لماذا لم يكتب عن جوته، أو شوبنهاور، أو عن غيره من عظماء المدرسة الفلسفية الألمانية العريقة. ذاك أنّ

الرّسالة الجنونية، والنّداء للحرية الذي تضمّنته حياة نيتشه، كان لها كبير الصّدى في فترة بدأت النّزعة القومية في التّصاعد مُنْبِئَةً بالقدوم الوشيك لقتال دام في القارّة العجوز، وأراد أن يتحدّث بطريقة سلسة عن الحريّة وعن الانسان الذي لا يعرف الحدود التي وضعتها الأمم، والقيم والأخلاق المزيّفة التي تختفي القرارات الشّنيعة وراءها.

طابق فِكْرُ نيتشه فكرَ زفايغ، نيتشه الذي كان يسمّي نفسه مُواطِنًا بلا وطن، والذي غادر ألمانيا مقرّرا أنّه لن يرجع إليها أبدًا؛ كان كلّ من حياته وهوسه وجنونه انعكاسا مناسبا لما كان يريد زفايغ أن يمرّره كرسالة خفيّة من خلال تكرّسه لكتابة السّير في فترة، ستُحرَقُ فيها كتبه، وسيُمنَع فيها من النّشر قبل أن يغادر هاربا باتّجاه المجهول.

لا يتطرّق زفايغ في سيرته هذه إلى التّفاصيل البسيطة في حياة الفيلسوف الملعون، ولا يتكلّم عنه من الجانب الفلسفي البحت، فقد ترك تلك المهمّة للفلاسفة، بل إلى الرّجل خلف الأسطورة، ذاك الذي مارس الفلسفة كفن، بلذّته وعذابه. متوغّلا في طبعه الحادّ الذي أدخله لا محالة في صراع مع العالم الذي يحيط به. بقي نيتشه الشّخص نفسه، لا أخلاقيا، غير وفيّ لأيّ اتّجاه أو مذهب فلسفي، إلى غاية جنونه، بعد أن ضحّى حتّى بأعزّ صداقاته ليبقى وفيّا لشغفه الأوحد والوحيد، ألا وهو البحث عن الحقيقة. في هذه الرّقصة

المدوّخة على حافّة الهاوية، يرسم زفايغ بعمق روحا متفرّدة، عن طريق نقاط أساسية ارتآها تعبّر بأفضل حال عمّا كان عليه الرّجل في حلّه وترحاله، في بؤسه وشقائه، وفي لذّته المعذِّبة والمعذَّبة. لامس زفايغ جوهر الانسان، وجسّد من خلال أسلوبه الرّاقي، القوّي، والتّصويري بقوّةٍ فكرًا وروحا دائمي التّحول، في حالة غليانٍ حدّ الجنون.

نيتشه في أسطر

نيتشه الشّاب

ولد "فريدريش فيلهلم نيتشه" في "روكن" في عام ١٨٤٤، وهي قرية ألمانية صغيرة. كان والده القسّ يعلّم فيها الفقه مثل أبيه من قبله، وكان مكلّفا بتعليم أحد أفراد العائلة المالكة. توفي والده إثر تعقيدات تلت سقوطه على رأسه، وتوفي، بعدها بسنة، أخوه بدوره وهو فقط طفل بالسّادسة من عمره.

بعد سلسلة الحوادث تلك، قرّرت أسرته مغادرة القرية لتستقرّ في مدينة صغيرة، "نامبورغ". وقد أبدى نيتشه حينها رغبته في مواصلة تقاليد الأسرة، بأن يصبح قسًّا كوالده، وجدّه من قبله. تعلّم العزف على آلة البيانو، والتحق وهو ابن العاشرة بكلية "نامبورغ"، حيث تفوّق على جميع أقرانه لدرجةٍ جعلت الأساتذة هناك يجمعون على ضرورة

بعثه إلى "فورتا" ، وهي مدرسة داخلية مُخصّصة للطّلاب الموهوبين في البلد؛ وهي كليّة درس فيها قبله "فيخته" والعديد من الأسماء اللامعة. قارئا نهما، متعطّشا لكلّ العلوم، احتار حينها عندما تعيّن عليه اختيار ميدانٍ محدّد أو فرع من العلوم التي كان يهتمّ بأغلبها. اكتشف في السّابعة عشرة من عمره أعمال "شيلر" و"هولدرلين" . وفكّر حينها في اعتزال الفقه والتّكرّس للموسيقى، لكنّه سرعان ما عدل عن رأيه. إذ أنّ إيمانه في تلك الفترة بدأ يتزعزع، وبدأ جسديا يعاني من الصّداع الذي سيرافقه مدى الحياة.

بعد تخرّجه، انتسب إلى جامعة "بون" في عام ١٨٦٤ من أجل دراسة فقه اللغة – philologie-. وشارك في الحياة الطّلابية رغم طبعه الانعزالي، لم يكن يهتمّ كثيرا بدروسه، لكنّه كان يعمل على العديد من المشاريع بالموازاة بشكل مكثّف.

لم يطل مكوثه بمدينة "بون" لأزيد من سنة، لحق بعدها بأستاذه "ريتشل" إلى جامعة" لايبزيغ". وهناك، اكتشف "شوبنهاور"، وهو الاكتشاف الذي سيؤثّر على حياته الفكرية بعمق. كما التقى "فاغنر"، وهو لقاء حاسم في حياته أيضًا.

أستاذ بازل

عُيِّن كأستاذ فقه لغة مباشرة بعد انتهائه من دراسته في جامعة بازل، بسويسرا، في عام ١٨٦٩. وكوّن علاقة وثيقة مع "ريتشارد فاغنر" الذي قد يقربه من بعيد.

كتب في العام ١٨٧٢ ، أوّل مؤلّف له، "مولد التّراجيديا" والذي لقي دعم وتشجيع صديقه "فاغنر"، لكنّه ما جعله يفقد مصداقيته أمام بعض من زملائه في اختصاصه، فقه اللغة.

خلال الحرب الفرنسية الألمانية الأولى، تطوّع ليلتحق بالجيش للعمل كممرّض.

كانت تلك الفترة فترة عديد الإخفاقات والمشاكل: فكتابه "اعتبارات خارج نطاق الزّمن"، رغم تميّزه، بقي عملا لم يلق النّجاح المنتظر، وقد مرّ نشره مرور الكرام. وهي فترة بعث فيها بإحدى مؤلّفاته الموسيقية لمايسترو، رفضها، وقد حطّم ذلك طموحات نيتشه الفنّية.

وخاب أمل أستاذه السّابق "ريتشل" بعد أن رآه يبتعد عن فقه اللّغة، وهو المجال الذي ظنّ أنّه سيصبح في أستاذًا ذا شأن.

مرض في العام ١٨٧٥، وانتابته أزمات صداع كادت تتركه كفيفا. بعد وعكته الصّحية الخطيرة تلك، بدأ في انتقاد الأخلاق ونفاقها، والنّظام الاجتماعي. وبدأ في الفترة نفسها خصامه مع "فاغنر"

بعد أن ألّف " ريتشارد فاغنر في بايرويت" سنة ١٨٧٥، حتّى أنّ هذا الأخير رفض أن يقرأ كتاب "إنسان مفرط في انسانيّته"، عندما بعثه له نيتشه، وبذلك كانت القطيعة بين الصّديقين قد أصبحت رسميًا نهائية. منعته حالته الصّحية من التّدريس. وفي عام ١٨٧٩، استقال من منصبه كأستاذ لكنّه تحصّل على منحة تقاعد سمحت له بالسّفر إلى الجنوب بحثا عن مناخ مناسب لشفائه.

تِرْحالُ الرَّجل، وتِيهُ الفيلسوف

لم يستقرّ الباحث عن الحقيقة أبدًا في مكان. في مدينة جنوة كتب مؤلّفه "الفجر"، وفيها استمع لأوّل مرّة لأوبرا "كارمن" التي أثّرت فيه بشكلٍ كبير. في روما، في عام ١٨٨٢ ، التقى "لو سالومي"، والتي كانت امرأة ذكّية مميّزة ستصبح فيما بعد صديقةً مقرّبة لفرويد وريلكه. تُيّم بها، لكنّ عدّة عوامل وقفت ضدّه ولعب عدّة أشخاص من بينهم أخته، وصديقه "بول ري" دورا في كونها قصّةً انتهت بطريقة مأساوية. وهو الشّيء الذي أغرقه في اكتئاب مزمن.

بدأ بعدها مشروعًا ضخمًا وهو كتابة "هكذا تكلّم زرادشت"، والذي استمرّ من العام ١٨٨٢ إلى غاية ١٨٨٥: كتبه على عدّة مراحل، وفي عدّة مدن، بدأه في جنوة لينهيه في منطقة "نيس". ليعتبره رائعته

المطلقة من بين جميع مؤلّفاته، رغم أنّه لم يبع منه سوى مئة نسخة، ولم يلق الاقبال الجماهيري عام اصداره.

من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٨٨٨ ، وكأنّه أحسّ بالجنون القادم متلهّفا لإخماد لهيب حيويته، تسارعت وتيرة كتابته، هي فترة ألّف فيها ما لا يقلّ عن خمس روائع: "ما وراء الخير والشّر"، ١٨٨٦، "في جنيالوجيا الأخلاق"١٨٨٧، المسيح الدّجال، و "هو ذا الإنسان"، سنة ١٨٨٨. بدأ صيته يذيع، وبدأت الشّهرة تطوّقه وهو في سنّ الأربعة والأربعين. بدأ بعدها في الاشتغال على مخطوط "إرادة القوّة" الذي لن يكمله أبدًا.

الجنون

عاد إلى "تورينو" بعد إقامة طالت في "سيلس-ماريا"، حيث تدهورت صحّته مُجدّدا بشكل مفزع، وتعرّض لأوّل نوبة جنون. جعلته نوبات الهذيان يظنّ نفسه خليفةَ "نابليون"، أو أنّه "ديونيسوس" أو المسيح شخصيًا. وراح يكتب الرّسالة تلو الأخرى، رسائل لا معنى لها، للأصدقاء أو الغرباء.

وضع بعدها في مشفى للمجانين حيث قضى وقته في التّكلم والغناء، ويبدو حينها أنّه نسي حياته السّابقة كليًا، رغم أنّ بعض الذّكريات كانت تطفوا مُجدّدا على السّطح من حين لآخر، غامضة مبهمة.

انتهى به الأمر بأن غرق في الأخير في حالةٍ من الصّمت والكاتاتونيا إلى غاية وفاته. يُجهل لحدّ الآن طبيعة المرض الذي أدى به إلى هذه الحتمية، هل كان ذلك بسبب مرض الزّهري، أم ورم دماغي، أم نتيجة العقاقير الخطرة التي كان يتداوى بها من صداعه.

توفّي، سنة ١٩٠٠، بعد أن سهرت على رعايته في اللحظات الأخيرة شقيقته، ثمّ والدته، ضاع في حالة يجهل فيها من يكون، ولا يعرف شيئا عن شهرته التي حقّقها في القارّة العجوز، والعالم بأسره.

يقول نيتشه: "دوستويفسكي هو الوحيد الذي أفادني في علم النّفس، وفاق اكتشافي له أهميّة اكتشافي لستندال".

لعلّ زفايغ، من خلال هذا البورتريه المتفرّد، أراد أن يُمارس القليل من فنّ "فرويد" على الذي كان شعلةً حدّ الجنون في سماءٍ أوروبية مظلمة، ذاك الذي أراد بلهب حماسه أن ينيرها، لتكتمل لنا حلقات الحلّ والتّرحال في سرمديةٍ مثالية.

المترجم

أهتمّ بفيلسوف عندما يكون قادرا على أن يكون قُدوةً.
اعتباراتٌ خارجةٌ عن نطاق الزّمن.

حصد أكبر مُتَع الوجود: هو العيش بشكلٍ خطير.
اعتباراتٌ سابقةٌ لأوانها.

مَأسَاةٌ دونَ شَخْصِيّات

مأساةُ فريدريك نيتشه عبارةٌ عن مونودراما: لا وجود فيها لأيّ شخصيةٍ عداه في مشهد حياته القصير. أثناء فصولِ هذه المأساة المُندفعة مثل الانهيار (الثّلجي)، يقف المُصارعُ المنعزل وحيدًا تحت سماءِ قَدَره العاصفة؛ إذ لا وجود لأحدٍ بقربه، ولا لأحدٍ ليُعارِضَه، ولا حتّى امرأةً لتُلطِّف بحضورها الرّقيق الجوَّ المتوتّر. تَصدرُ كلُّ حركةٍ منه وحده، وهو الشّاهد الوحيد عليها: في حين ترافق الشّخصيات القليلة التي غامرت بالظّهور في ظلّه في البداية بإيماءةٍ صامتةٍ مُرتعبة مشروعَه البطولي، لتبتعد بعدها شيئًا فشيئًا من أمامه كما لو أنّها تنسحب أمام خطرٍ مُحدِق. لم يجرؤ ولا إنسان واحد على الدّخول كليًا في الحلقة الدّاخلية لهذا القَدَر؛ يتحدّث نيتشه دائمًا، يكافح دائمًا، يعاني دائمًا لوحده. فهو لا يُكلّم أحدًا، ولا أحدَ يجيبه. بل أسوء من ذلك، لا أحد يهتمّ لشأنه.

في مأساة نيتشه-ذات البطولة الفردية-، لا وجود لأشخاص، ولا

لشُركاء، ولا لمستمعين؛ لا وجود أيضًا لخشبة مسرحٍ بمعنى الكلمة، أو لمشهد، أو ديكورٍ وأزياء؛ تُمثَّلُ تلك المأساة في فضاءِ الفكرة الفارغ. "بازل"، "نومبورغ"، "سورينتو"، "نيس"، "سيلس-ماريا"، "جنوة"، ما هذه بأسماء أماكن حقيقية أقام بها نيتشه، بل هي مُجرّد معالم فارغة على طول مسارٍ قطعه بأجنحةٍ مُحترِقة، -ببساطةِ كواليسٍ باردة، وألوانٍ صامتة!

يظلّ مشهد هذه المأساة في الحقيقة دائما ثابتًا: العزلة، الوحدة، هذه الوحدة الشّنيعة التي تبقى دون كلمات، ودون إجابة، يحملها الفِكر النّيتشي حوله وبداخله مثل ناقوس زجاجي يستحيل اختراقه؛ وحدة بلا ورود، بلا نور، ولا موسيقى، محرومة حتّى من الرّب، وحدة متحجّرة انطفأت لعالمٍ بدائي واقعٍ خارج الزّمن. حقيقة كون الفراغ والحزن يرعبان فعلا، يخوّفان، ويبدوان في الوقت نفسه فظّين جدًا، سببه راجع -وهذه مفارقة لا تصدّق- لأنّ هذا الامتداد الجليدي، صحراءُ العزلة هذه، يتواجد روحيًا وسط بلدٍ مُتأمّركٍ يسكنه سبعون مليون نسمة، وسط ألمانيا الجديدة النّابضة بالحيوية، المدويّة بأصوات السّكك الحديدية والتّلفراف، والصّخب، يتواجد في قلب ثقافة فضولُها مرضيّ، ترمي إلى العالم سنويا بأربعين ألف مؤلَّف، تَدْرُس يوميا ألفَ مُشكلة في مئة جامعة، والتّي تمثّل كلّ يوم المأساة

في مئات المسارح والتي، رغم كلّ ذلك لا تعلم شيئا، ولا تُخمِّن شيئا ولا تحسّ بشيءٍ من هذه الدّراما الرّوحية التي تدور أحداثها في عقر دارها، في حلقتها الحميمية.

لأنّه وبالتّحديد، في أكثر لحظاتها عظمةً، لم يعد لمأساة فريدريك نيتشه ولا مشاهد واحد، أو مستمع، أو شاهد وحيد في العالم الألماني. في البداية، طالما كان يتحدّث من منبر كرسيّ الأستاذ الجامعي، وكان ضوءُ "فاغنر" ينيره، ظلّ خطابه يحظى بالقليل من الاهتمام، لكن كلّما نزول إلى أعماق نفسه أكثر، كلّما غاص في عمق الزّمن، قلّ الصّدى الذي يقابله أكثر فأكثر. نهض الأصدقاء والغرباء، الواحد تلو الآخر، خائفين، مرعوبين أثناء مونولوجه البطولي، مذعورين من التّحوّلات التي لا تنفكّ تزداد وحشيةً، ومن نشوات الفيلسوف المستعرة أكثر فأكثر، وتركوه وحيدا في مشهد قَدَره. شيئًا فشيئًا، يقلق المُمثّل التّراجيدي من التّحدث وحده في الفراغ تمامًا؛ فيرفع صوتَه أكثر، يصرخ، ويومئ بحركاتٍ كبيرة كي يخلق صدىً، أو على الأقلّ معارضة. يختلق موسيقى كي يوحّدها مع كلمته - موسيقى متدّفقة، مُسكِرة، هوجاء-، لكن لم يعد أحد يستمع إليه بالمرّة.

فيلجأ إلى التّهريج، إلى ابتهاجٍ قسريّ مُفتعل، حادّ وثاقب؛ ويجبر جُمَلَه على أن تصبح استعراضية، يزيّنها بالنّكت، فقط لإغراء مستمعه

الجادّ للغاية بمتعةٍ مُصطنَعة، لكن ما من يدٍ تتحرّك لتُصفّق له.
أخيرًا يخترع رقصة، رقصةَ السّيوف، ثمّ، مُحطّمًا، ممزّقا، داميا،
يمارس أمام الجمهور فنّه المميت، لكن لا أحد يخمّن معنى نكاته
الصّارخة، ولا حقيقة الشّغف المجروح الكامن وراء هذا الطّيش. دون
مستمعين، ودون أدنى صدى، تُختتَم أمامَ مقاعدَ فارغة أروعُ مأساةٍ
مُنِحت لقرننا المضطرب هذا.

لا أحدَ يلتفت ليلقي بنظرة ولو لا مبالية باتّجاهه، عندما تندفع بشكل
رائع دوّامةُ أفكاره المهتزّة على طرفٍ فولاذي مرّة أخيرة، لتسقط
خائرة القوى على الأرض –"ميّتة من الخُلود".

المعنى الأعمق للمأساة التّي كانت حياة فريدريك نيتشه، والمحنة
المقدّسة التي لا تضاهى، هي حالة العزلة مع الذّات، وبقاؤه وحيدًا مع
نفسه: أبدًا من قبل لم توضع عظمةُ العقلِ، وهيجانٌ شديدٌ للمشاعر،
أمامَ فراغٍ للعالم بهذا الكبر، أو أمام صمتٍ بهذه الصّلابة الفولاذية
غير القابلة للاختراق. لم يُمنَح حتّى شرف الحصول على خصوم
مهمّين؛ وهكذا، أُجبِرت أقوى إرادة فكرية "مُنغلقة على ذاتها، تحفر
في ذاتها" على البحث عن إجابةٍ ومقاومةٍ داخل كيانها، في روحها
المأساوية. لم يقتلع هذا العقلُ الذي أغضبه القَدَرُ من العالم، سترةَ
"نيسوس"، مثل "هيراكليس"، بَلْ اقتلعها من أشلاء جلده الدّامية،

هذه الحماسة المُلتهِمة، ليجد نفسه عاريا أمام الحقيقة المطلقة، أمام نفسه. لكن يا لها من قشعريرة جليدية حول هذا العري، يا له من صمتٍ حول صرخة العقل هذه التي لم يسبق لها مثيل، يا لها من سماء مرعبة مليئة بالغيوم والبرق، فوقَ "قاتلِ الرّب" الذي، بعد أن لم يعد وجودٌ لأيِّ خصم يقابله، وحتّى هو لم يعد يجد خصوما، ها هو ذا يتهجّم على ذاته -"عارفٌ بذاته، جلّادٌ ذاته بلا شفقة". يدفعه شيطانُه إلى ما هو أبعدُ من الوقت والعالم، ما هو أبعد حتّى من أقصى حدود كيانه:

مرتجف بحمّى مجهولة.
مرتعد أمام السّهام المتجمّدة الجليدية الحادّة
من قبلكِ مطاردٌ، يا فكرةً!
لا يوصف! قاتم! رهيب!

أحيانا، يتراجع مُرتجفا، وفي عينه نظرة فزع لا توصف، عندما يُدرك إلى أيّ مدى رمت به حياته فوق كلّ شيءٍ حيّ، وكلّ شيءٍ كان. لكن يستحيل لاندفاعٍ بمثل هذه القوّة أن يتقهقر، فبثقةٍ تامّة، وفي الوقت نفسه بالنشوة المسكرة للذّات، ها هو ذا يُحقّق المصيرَ الذي تنبّأ له به "هولديرلن" العزيز عليه- مصيره المشابه لأمبادوقليس.

مشهدٌ بطوليّ لا سماءَ له، لعبةٌ عملاقةٌ دون متفرّجين، الصّمت،

صمتٌ يزداد حدّة حولَ أفظعِ صرخةٍ لعزلةِ الرّوح، هكذا هي مأساة فريدريك نيتشه: توجّب كُرْهها كواحدةٍ من عديد قَسَاوات الطّبيعة التي لا معنى لها، لو لم يتقبّلها هو في نشوةٍ، ولو لم يخْتَر ويُحِبّ شدّتها المتفرّدة، بسبب هذه الميزة المتفرّدة بالذّات. إذ أنّه، طوعًا، وهو في حالةِ وعي شديد، متنازلا عن وجودِ مضمون، شَيّدَ لنفسه هذه "الحياةَ الخاصّة" بأعمقِ غريزةٍ مأساوية، متحدّيا الآلهة بشجاعة لا مثيل لها، "لكي يجرّب بنفسه أعظمَ درجات الخطر التي يمكن لإنسانٍ خوضها". Χαιρετε δαιμονες! – تحيّةً لك أيّتها الشّياطين! ذات ليلة سعيدة، صارخين بكِبْرٍ وخيّلاء، مثلَ الطّلبة، يستحضر نيتشه وأصدقاؤه الفلاسفةُ القوى: في السّاعة التي تهيم فيها الأرواح، يسكبون من النّوافذ أحمرَ النّبيذ لأقداحهم الممتلئة في شارعٍ نائم من مدينة بازل-مثل إراقةٍ لمَا لا يُرى. ما هذه هنا سوى مزحة الخيال الذي يفيظ تنبّؤًا أعمق: لكنّ الشّياطين تسمع النّداء، وستلاحق ذاك الذي تحدّاها، كي تتحوّل في الأخير لعبةُ ليلةٍ واحدة إلى مأساة عظيمة لقدَرٍ بأكمله.

ومع ذلك، فنيتشه لا يتهرّب أبدًا من المتطلّبات التي يحسّ دائما نفسه مقيّدا بها، ومجرورا إليها: كلّما زادَ العنف الذي تضربه به المطرقة، كلّما زاد دوّي الكتلة النّحاسية الذي تصدره إرادته وضوحًا. وفوق

هذا السّندان الذي جعلته القوّة محمرًا، يصقل في كلّ مرّة بطريقة أصعب، مع كلّ ضربة مضاعفة، العبارةَ التي ستُدرّع ذهنَه بدرع برونزي بعدها، "عبارة عظمة الانسان"، "حبّ القدر"، amor fati: بمعنى ألّا يرغب المرء أبدًا في تغيير أيّ حدث من الماضي، أو من المستقبل، وألّا يكتفي بتحمّل الضّرورة فقط، وبدرجة أقلّ، إخفائها، بل أن يحبّها. مثل قصيدةٍ حماسيةٍ، تُغطّي أغنية هذا الحبّ الحماسي الموجّهة "للقوى" صرخةَ ألمه: ملقى على الأرض، مهزوم بصمت العالم، متآكل بذاته، هو لا يرفع يديه أبدا طالبا من القدر أن يتركه بسلام أخيرا. بل على العكس، يُطالب بشدّة بمحنة أخرى، بعزلةٍ أعمق، ومعاناةٍ أكمل، بأقسى امتحانٍ لتحمّله؛ لو رفع بيديه، فليس ذلك من أجل أن يتهرّب، بل ليؤدّي صلاةَ البطل الرّائعة: "يا إرادة روحي، التي أُسمّيها القدر، أنت المتواجدة بكياني، أنت الأكبر منّي، احفظيني، وهيّئيني لقَدَرٍ عظيم".

في حين أنّ الذي يعرف كيف يصلّي بعظمة كهذه، يُستجاب له دائما.

مظهر السّلوك المثير للشَّفقة ليس من العظمة بشيء، زائفٌ ذاك الذي هو بحاجةٍ للمظاهر...

احذر من كلّ النّاس الفاتنين.

صورة مزدوجة

صورة البطل المثيرة للشّفقة.

هكذا إذن تصفه الكذبة الرّخامية، الأسطورة الخلّابة: رأسٌ بطوليّ مرفوع بتعالٍ، جبهة عريضة عالية مقوّسة، حفرتها الأفكار المظلمة بالتّجاعيد، موجة شعر تُثقِل بقوّة قفا عنقه القويّ البارز. تلمع عيون الصّقر تحت حاجبين كثيفين، وكلّ عضلة من عضلات هذا الوجه القويّ مشدودة بالإرادة، والصّحة والحيوية. يغطّي الشّارب الرّجولي الذي يشبه شاربَ "فيرسانجيتوريكس" فمًا قاسيا، وذقنا بارزًا يُظهر المحاربَ البربري، ودون أن نقصد ذلك، نكمّل رأسَ الأسد القويّ البنية بوصف جسدِ فايكنغ جرماني، يتقدّم بخطوات كبيرة، حاملا سيف النّصر، وبوق الصّيد مع الرّمح. هكذا يُفضّل نحّاتونا ورسّامونا تجسيدَ هذا المفكّر المنعزل، من خلال منحه مواصفات الرّجل الألماني الخارق بطريقة تعسفيّة، ومميّزات شخصيّة قديمة مثل بروميثيوس

المكبّل بالسّلاسل، لجعله في مُتناول فهم الإنسانية، وهو شخصية جعلت الكتبُ والمشاهد مأساتَها مستحيلةَ الفهم لو لم يُكَفْ بطريقة مسرحية. لكن المأساة الحقيقيّة ليست أبدًا مسرحية، ولهذا السّبب، فبورتريه نيتشه الحقيقي هو في الواقع أقلّ زخرفا بكثير من المنحوتات واللّوحات التي جسّدته.

بورتريه الرّجل.

قاعةُ أكلٍ بائسة في نُزُلٍ بستّة فرنكات لليوم، في فندق يقع بمنطقة جبال الألب، أو على ضفاف منطقة "ليغوريا". نزلاء غير مبالين، في أغلب الأوقات نساءٌ مسنّات مشغولات بالثّرثرة. دقّ الجرس ثلاث مرّات لدعوة النّاس للأكل. يتخطّى العتبةَ شكلٌ متردّدٌ، مقوّسٌ قليلا، مرتخي الكتفين: يدخل نيتشه دائما - هو الكفيف بنسبةِ ستّةِ أسباع- بخطوة غير واثقة كما لو كان خارجًا من كهف. يرتدي بدلة قاتمةً فُرِشت بعناية؛ وجهه قاتم أيضا، بشعرٍ كثيفٍ بنيّ مموّج. قاتمة هي أيضا عيناه خلف زجاج نظّارته الطبّية السّميك المقوّس. بهدوء، بل بحياء حتّى، يقترب وصمت خارج عن العادة يطوّقه.

نحسّ هنا بوجود رجل يعيش في الظّل، بعيدًا عن كلّ مجتمع وكلّ محادثة، يخشى كلُّ ضجيجٍ بقلقٍ يضاهي قلقَ الوهن العصبي: بأدب،

وبلباقة ملؤها التّميز، يحيّي الآخرين بلامبالاة لطيفة، ويردّ الآخرون التّحية للأستاذ الألماني. بالحذرِ الذي يميّز قصيري النّظر، يتقدّم نحو الطّاولة؛ وبحذر من معدتهم حسّاسة، يتفحّص الأطباق ليرى، مثلا، إن لم يكن الشّاي قويًا جدًا، والمأكولات متبّلة بشدّة، فأخطاء الأكل تهيّج أمعاءه الحسّاسة، وقد يقلب أيّ خطأ في نظامه الغذائي أيّامَ أعصابه المرتعدة بأسرها رأسا على عقب.

لم يوضع أمامه لا كأس نبيذ، ولا كأس جعة، لا كحول، ولا قهوة، لا سيجار، ولا لفافة تبغ بعد الوجبة؛ لا شيء من الأشياء التي تنشّط، تنعش أو تمنح شعورًا بالاسترخاء؛ فقط وجبة سريعة وخفيفة متواضعة، ومحادثة اجتماعية سطحية بصوت منخفض مع شخص وضعته الصُّدَف بجواره- هو يتحدّث مثل رجلٍ فقد عادة الحديث منذ سنوات، ويخشى أن تُطرَح عليه كثيرٌ من الأسئلة. ثمّ يصعد مجدّدا إلى غرفته الصّغيرة المزيّنة، الضّيقة، البائسة، المفروشة ببرود؛ حيث مكتبه مليء بعددٍ لا يحصى من الأوراق، والملحوظات، والكتابات والمسوّدات. لكن لا توجد زهرة واحدة، ولا زينة واحدة، بالكاد كتاب، ونادرا ما تكون هنالك رسالة.

هناك عند الزّاوية، وُضِع صندوقٌ خشبي ثقيل، هو ملكه الوحيد، مع قميصَيه وبدلة احتياطية للتّغيير (بخلاف ذلك، لا شيء غير كتبٍ

ومخطوطات). يتواجد على رفّ عدد كبير من الزّجاجات، والقوارير والخلطات المُعدّة ضدّ الصّداع الذي يدفعه للجنون لساعاتٍ طوال عندما ينتابه، وضدّ تشنّجات المعدة، والقيء المتشنّج، والكسل المعوي، وخاصّة الأدوية الرّهيبة ضدّ الأرق -الكلورال والفيرونال. هي ترسانة حقيقية من السّموم والأدوية- وهي كلّ ما يملك من مساعدَة وسط الصّمت الفارغ لغرفةٍ هو غريبٌ عنها، لا يجد فيها إلّا نومًا قصيرًا تحصّل عليه بطريقة اصطناعية.

مغلّفا بمعطفه، ملفوفًا في شالٍ صوفي (ذلك أنّ الموقد البائس يصدر الدّخان دون أن يبثّ أيّ دفء)، بأصابع متجمّدة، وزجاج النّظارة المُضاعف يحتّك بالورق، يخطّ بيده السّريعة طيلةَ ساعاتٍ كلماتٍ بالكادِ يمكن للعين القاتمة فكّ شفرتها. على هذا الشّكل، ولساعاتٍ طوال، يكتبُ حتّى تُحرقه عيناها وتدمعان: ولو أنّ أحدهم هبّ لمساعدته وأشفق عليه، وساعده في الكتابة بأن كتب عنه ما يمليه، لساعةٍ أو اثنتين، لكان ذلك من أندر لحظات السّعادة في حياته.

عندما يكون الطّقس جميلا، يخرج المنعزِل دائما لوحده-دائما لوحده رفقة أفكاره: لا يلقي أبدًا التّحية في طريقه: لا رفيق معه، ولا يلتقي أبدًا بأيّ كان. تبقيه أشياءً مثل الجوّ المغيّم الذي يكره، والمطر، والثّلج الذي يؤلم عينيه بلا شفقة سجينَ غُرفتِه: لا ينزل أبدًا لملاقاة الآخرين،

النّاس. في المساء، يتناول بعض البسكويت، ويشرب كأسًا من الشّاي الخفيف، ثمّ سرعان ما يرجع بعدها إلى عزلته الطّويلة السّرمدية رفقة أفكاره. لساعات وساعات يسهر أمام مصباحه الذي ترتجف شعلته، دون أن ترتخي أعصابه الشدّيدة التّوتر أو تستسلم إلى تعبٍ لطيف. عندها، تمسك يده بالكلورال، أو أيّ منوّم كان، ثمّ أخيرا، يتحصّل عنوةً على النّوم الذي وُجِد من أجل الآخرين- أولئك الذين لا يفكّرون، من لا يطاردهم الشّيطان.

أحيانا يلازم السّرير أيّامًا عدّة. يصيبه قيء ومغص يجعلانه يفقد الوعي، بينما يقطّع الألم صدغيه كالمنشار، يكاد يكون تقريبا أعمى. ولا يوجد بقربه أحد، ولا يدٌ ممدودة، لا أحد ليضع كمّادةً على الجبين الملتهب، لا أحد ليقرأ له، أو ليحادثه، أو ليضحك معه.

وهذه الغرفة المفروشة هي في كلّ الأمكنة الغرفة نفسها. غالبًا ما تُغيّر المُدن أسمائها، فأحيانا هي "سورينتو" وأحيانا "تورينو"، أحيانا "البندقية" وأحيانا "نيس"، أحيانا "ماريان باند"، لكنّ الغرفة المفروشة تظلّ نفسها، دائما غرفة مؤجّرة، الغرفة الغريبة بأثاثها الفاتر، القديم، الرّث؛ ومع مكتب العمل وسرير المعاناة، الوحدة الأبدية. لم يحظ أبدًا طيلة السّنوات الطّوال من التّرحال بوسطٍ ودودٍ أو صديق، ولم يحظ أبدًا في الليل، بجسد امرأة عارٍ ودافئ بالقرب من

جسده، أو بفجرٍ مجدٍ بعدَ آلاف اللّيالي الحالكة الصّامتة من العمل.

أوما ما أكبر وحدة نيتشه، بكبر هضبة "سيلس-ماريا" الجميلة التي يتجوّل فيها السّياح الآن في الفترة الممتدّة بين الغداء والعشاء: وحدته تغطّي العالم، وتتجاوز حدودَ حياته.

من وقتٍ لآخر، يأتيه ضيف، غريب، زائر. لكنّ القشرة التي تصلّبت كليًا تحمي بقوّة النّواةَ الحسّاسة، التّواقة للتّواصل؛ ثمّ يتنفّس المنعزِل الصّعداء ما إن يتركه زائره لوحدته. بعد مرور خمسة عشر عامًا، لم يبق عنده أدنى أثرٍ لطريقة التّعايش الاجتماعي.

تُتعب المحادثة وتثير حفيظة الذي يأكل ذاته، والّذي لا يتوق رغم ذلك، نهِماً، إلّا لأكلِ ذاته. أحيانًا، ولوهلةٍ وجيزة، يلمع بداخله شعاعُ سعادةٍ اسمه "الموسيقى"- عرضٌ لـ"كارمن" في مسرح رديء في مدينة "نيس"، أو بعض الألحان في حفلٍ موسيقي، أو ساعةً من عزف البيانو. لكن أصبح هذا أيضا يؤلمه، ويجعله يتأثّر حتّى "تنهمر الدّموع من عينيه". جعل الحرمان من السّعادة هذه الأخيرة غريبة عليه لدرجة لم يعد باستطاعته الشّعور بها إلّا على شكل معاناة.

طيلة خمس عشرة سنة، يمتد "أخدود" حياة نيتشه من غرفة مستأجرة مفروشة لأخرى -والذي يظلّ غير معروف، فهو الوحيد المُدرك لوجوده –عبورٌ مرعب في ظلمات كبريات المدن، في تلك النّزل

ذات الأواني البائسة، وقطارات متّسخة والكثير من غرف المرضى، بينما في الخارج، على سطح الزّمن، يصرخ صخب مَعَارِض الفنون والعلوم: وحده هروب دوستويفسكي في الفترة نفسها تقريبًا، من نفس الفقر، نفس النّسيان، يعادل طيفه ضوء الشّبح الرمادي البارد. في هذه الحالة كما في تلك، تخفي أعمالُ الجبّارِ-التّايتن- الهيئةَ الهزيلة لعازر البائس، والذي يموت يوميًا بسبب محنته وأمراضه، والذي تنتزعه يوميًا المعجزة المنقذة للإرادة الخلّاقة من أعماق قبره. لمدّة خمسة عشر عامًا، يخرج نيتشه من قبر غرفته ويعود إليه، من آلام إلى آلام أخرى، ومن مصرع لمصرع آخر، من إعادة بعثٍ لأخرى، حتّى ينفجر عقله المحموم من ذلك الكمّ من الطّاقة.

التقط مجهولون أكثر رجالِ عصره غرابةً من الشّارع. وحمله غرباءٌ إلى الغرفة الغريبة في شارع "كارلو-ألبرتو" في "تورينو". لم يكن أحد شاهدًا على موته الفكري. حول نهايته، تحوم العتمة والعزلة المقدّسة. وحيد ونكرة، يتهاوى أكبر عبقريٍّ للرّوح في ليله الخاص.

ما لا يقتلني، يجعلني أقوى

إشادَةٌ بالمرض

لا يُحصى كَمُّ صرخات ألمِ هذا الجسدِ المُعذَّب. إنّه جدول من مائة عدد، يحوي كلّ العلل والأمراض الجسدية، يحمل في خلاصته هذه النّتيجة الرّهيبة: "في كلّ مراحل الحياة، كان الألم الزّائد رهيبا معي". أيّام بأسرها لا معنى لها من الهوس المرضي المرعب، هذا الكائن البائس في هذيانه مستلقٍ بغباء على الصّوفا أو السّرير، لا ينقصه أيُّ عذابٍ شيطاني من جَلَبَةِ وفوضى المرض: آلام الرّأس، صداع مدوّخ، تشنّجات معدية، وقيءٌ دامٍ، صداع نصفي، حُمّى، نقصٌ في الشّهية، اكتئاب، بواسير، توعّك معوي، ارتماش محموم، تعرّق ليلي-إنّها حلقة مُفرغة رهيبة. أضِف إلى ذلك، "عينين ثلث أرباعهما غارقٌ في اللّيل" تنتفخان عند أدنى مجهود، أو تدمّعان ولا تسمحان له بالتّمتع بالضّوء لأكثر من "ساعة ونصف السّاعة في اليوم".

لكن نيتشه يمقت نمط الحياة الصّحي، ويفضّل البقاء لعشر ساعات

متواصلة جالسا إلى مكتبه يعمل. وعندها، ينتقم دماغه المسخن فوق طاقته لنفسه من هذه التّجاوزات والمبالغة بآلام غاضبة، وبتوتّر عصبي؛ ففي المساء، وبعد أن يكون قد مضى وقت طويل على تعب الجسد والعقل، هو لا يتوقّف، بل يواصل في تطوير الرّؤى والأفكار حتّى يستلزم الأمر منوّمات لإيقافه. ويتطلّب الأمر في كلّ مرّة جرعات متزايدة (خلالَ شهرين، قد يستهلك نيتشه خمسين غرامًا من "هيدرات الكلورال" ليحظى بالقليل من النّوم). ثم يأتي دور المعدة لتتمرّد وترفض دفعَ جزيةٍ كتلك. حينها – في حلقة مفرغة (circulus vitiosus)- تبدأ تشنّجات القيء، وتتطلّب آلام الرّأس الجديدة علاجا جديدا. تخوض الأعضاء المُنهكة حربًا شرسة لا هوادة فيها ضدّ بعضها البعض، حربٌ لا تشبع، شغوف، تعيدُ فيها الأعضاء الكرةَ المزروعة بالأشواك لبعضها في لعبةٍ لا تنتهي، لا توجد فيها أيّ استراحة. لا توقّف هادئ، ولا حتّى شهرًا قصيرًا من القناعة، أو من نسيان الذّات.

طيلة عشرين عامًا، يستحيل إيجاد رسالة واحدة لا ينطلق أنينٌ من سطرٍ ما من سطورها. وتصبح صرخات ذاك الذي تُفرَس المهاميز في أعصابه دائمًا أكثر غضبا، وأشدّ عنفا، يقول لنفسه : "سَهّل الأمورَ على نفسك، مُثلا"، أو يقول: "صار المسدّس الآن بالنّسبة لي مصدر

أفكارٍ سارّة"، أو أيضا: "يجعلني التّعذيب الشّديد الذي يكاد يكون متواصلا متعطّشا للنّهاية، وبالنّظر لبعض المؤشّرات، التّحرير، السّكتة الدّماغية قريبة".

نفذت منه منذ مدّة طويلة صيغ التّفضيل ليُعبّر بها عن آلامه؛ حتّى أنّها صارت تبدوا رتيبة في تكرارها المتواصل والمثير للسّخط، هذه الصّرخات الرّهيبة، والتي فقدت جانبها الإنساني لكنّها تظلّ تنطلق نحو البشر، من أعماق "عيشة الكلاب" هذه.

وها هو ذا يتأجّج فجأة (ونرتعد خوفا أمام تناقضٍ بهذه الوحشية) الاعتراف القويّ، المتكبّر، الصّخري في كتابه "هو ذا الانسان"، بأسلوب فخورٍ ومقتضب، يبدو وكأنّه يصف كلّ الصّرخات السّابقة بالكاذبة: "في المجمل، كنتُ (ويتعلّق الأمر هنا بالخمسة عشر عامًا الماضية) بصحّة جيدة".

ما الذي يجب تصديقه في الحقيقة؟ آلاف صرخات الألم تلك، أم الكلمة العظيمة؟ كلاهما معًا. كان جسد نيتشه من النّاحية العضوية قويًا وقادرًا على المقاومة. وبإمكان جذعه القويّ البنية تحمّل أثقل الأعباء. تتعمّق جذوره في التّربة السّليمة لسلالةٍ من الرّعاة الألمان. في المجمل، في الوقت ذاته، في كلّ من طبعه، وجسمه، وفي أساسات جسده وروحه، كان نيتشه حقًا رجلاً سليمًا.

وحدها أعصابه كانت بالغة الحساسية أمام عنفِ عواطفه. ولذلك فهي دائمة الغضب، ثائرةٌ باستمرار. (لكن لا يمكن للثّورة هنا أن تزعزع قوّة البرونز، قوّة روحه المُسيطِرة).

وجد نيتشه نفسه أحسن صورة لوصف هذه الحالة الوسط بين الخطر والأمان، عندما يتكلّم عن "طلقات رصاص صغيرة" لآلامه. في حقيقة الأمر، لم تخترق أبدا هذه الحرب جدار قوّته الدّاخلي: مثل "جاليفر" في "بروبدينياق"، يتعرّض نيتشه باستمرار للهجوم من قبل آلامه الأقزام. أعصابه دائما متيقّظة، وهو في حالة سهر أو حراسة دائمة، كلّ انتباهه مشدودٌ بالعناية المرهِقة والمستحوِذة على وقته لدفاعه الخاص.

لكن، لم ينجح أبدًا مرض حقيقي في طرحه أرضا، أو التّغلب عليه، باستثناء ذلك المرض الذي حفر لمدّة عشرين عامًا خنادقه تحت حصن دماغه، والذي فجّره بعدها فجأة. عقلٌ بعظمةِ عقل نيتشه لا يتداعى بعد تبادل إطلاقِ نارٍ صغير، وحده تفجير مدوٍّ بإمكانه أن يتغلّب على الجرانيت الذي قُدّ منه دماغٌ كذلك. وبالتّالي، تقابل قدرةَ التّألّم العظيمة مقاومةٌ عظيمة للألم، كما يعارِضُ عنفٌ كبير للحساسية، عصبيةٌ كبيرة للجهاز الحركي.

إذ أنّ كلّ عصب من أعصاب المعدة، على غرار أعصاب القلب والحسّ،

تمثّل عند نيتشه مقياس ضغطٍ عالي الدّقة، يستجيب لأصغر التّغيّرات والتّوترات بموجة عارمة من الإثارة المؤلمة. عنده، بالنّسبة لجسمه كما لعقله، لا يبقى أيّ شيءٍ محصورًا في مجال اللّاوعي. فأصغر الألياف التي تكون عادة صامتةً عند الآخرين، تتنبّه على الفور بإشارتها عن طريقِ وخزٍ وتمزّق، وتُفَجِّرُ "قابليةُ التّهيّج الجنونية" هذه عنده حيويتَه النّشطة بطبيعتها إلى آلاف الشّظايا القاتمة، القاطعة، الخطرة.

تأتي بعدها الصّرخات الفظيعة، عندما، ومع أيّ حركة، أيّ خطوة يخطوها في الحياة، يضرب أحد أعصابه المرتعدة المُعرَّاة.

فرط حساسية الأعصاب القاتل هذا الذي يكاد يكون شيطانيا عند نيتشه، تلك الأطياف التي لا تتخطّى عند غيره عتبة الوعي، تهزّ كيانه بألم، هي جذر معاناته الوحيد، وأيضا منبع قدرته العبقرية على تقدير القِيَم. عنده، ولكي يغلي دمُه تحت تأثير تفاعل فيزيولوجي، وجود شيءٍ ملموس أو علّة حقيقية ليس ضروريًا: ببساطة، الطّقس وحده، بتغيّراته من ساعة لأخرى، هو مصدرُ معاناة لا تنتهي.

ربّما لم يوجد إطلاقا فكرٌ بمثل هذه الحسّاسيّة للظّروف الجوّية، خاضع بهذا الشّكل الرّهيب لتذبذبات الظّواهر الجوية؛ هو الذي يمكن اعتبار جسده كاملا كمقياسٍ للضّغط، مقياس زئبقي حقيقي، إنّه التّهيج بعينه: يبدو وكأنّ اتّصالاتٍ سريّة كهربائية وُجِدت بين نبضه والضّغط الجوي، بين أعصابه ودرجة رطوبة الكرة الأرضية؛

تسجّل أعصابه على الفور كلّ ارتفاعٍ بمترٍ واحد على شكل آلام في الأعضاء، وتتفاعل هذه الأخيرة بتمرّد متوافق مع كل اضطرابٍ في الطّبيعة. يضعف المطر، أو سماء مغيّمة من حيويته: "تدمّرني سماء مغيّمة بشكل عميق". يكاد يشعر حتّى في أمعائه بتأثير سماءٍ ملبّدة بالغيوم. يُنقِص المطر من "إمكاناته"، وتضعفه الرّطوبة، بينما ينشّطه الجفاف، وتعيد له الشّمسُ الحياة؛ يُعتَبر الشّتاء بالنّسبة له نوعًا من مرض الكزاز، نوعًا من الموت.

يشبه المؤشّرُ المهتزّ لبارومتر أعصابه درجةَ حرارة شهر أبريل، فهو لا يثبت أبدا: الذي يحتاجه فعلا هو الذّهاب على الفور إلى طبيعةٍ لا سحب فيها، إلى الهضاب العليا في سهول "إنجادين" التي لا تعكّر صفوها أيّ رياح.

وكما تشعر بتأثير أدنى شحنة وأدنى ضغطٍ في السّماء الحقيقية، تشعر أعضائه القابلة للاشتعال أيضًا بتأثير جميع الشّحنات والاضطرابات والتّفريغات الجوّية في سماء الرّوح الدّاخلية. ففي كلّ مرّة تغلي فيها فكرةٌ بداخله، تومض كالبرق عبر عُقَدِ أعصابه المتوتّرة: فعل التّفكير عند نيتشه يتمّ بذروة نشوة، بإثارةٍ مكهربة بطريقة تجعله يؤثّر دائما على جسده كما لو كان عاصفةً، ومع كلّ انفجارٍ لحساسيّته، يكفي بغمزة، بمعناها الحرفي، لتُغيِّر مجرى الدّورة الدّموية. يرتبط كلّ

من الجسد والرّوح عند أكثر المفكّرين حيوية ارتباطًا وثيقا بأشياءِ الطّقس، وبذلك فالتّفاعل الدّاخليّ والخارجي عند نيتشه سواء: "لستُ لا روحًا، ولا جسدا، أنا شيءٌ ثالثٌ، أتألّم من كلّ شيءٍ، في كلّ موضع".

هذه القابلية الفطرية التي تمكّنه من التّمييز بهذا القدر من الدّقة بين أدنى الإثارات، طُوِّرَت فجأةً بفعل الجوّ الثّابت السّاكن، والمنغلق على ذاته لحياته، وبسبب عشرات السّنين التي قضاها في الوحدة. إذ وطيلة ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا في السّنة، لا يتصّل شيءٌ آخرٌ جسديًا بجسده، لا امرأةٌ، لا صديقًا، وبما أنه لا يستطيع التّحادث طيلة الأربع والعشرين ساعة من النّهار سوى مع دمه الخاص، فهو يواصل نوعًا من المحادثة التي لا تنتهي مع أعصابه.

باستمرار، وسط هذا الصّمت الرّهيب، يحمل بين يديه بوصلةَ أحاسيسه، وعلى شاكلة النُّساكِ، والرّجال الوحيدين، العزّاب وغريبي الأطوار، يلاحظ مثل المصاب بالمراق أصغر التّغيرات التي تطرأ على وظائف جسده. ينسى آخرون أنفسهم لأنّ اهتمامهم مشدود بالمحادثات، والأشغال، بالألعاب والتّعب، ولأنّهم يُغرِقون حساسيّتهم في الخمرة وفي اللّامبالاة.

لكنّ نيتشه، مثل عبقريّ في التّشخيص، يشعر دائما بإغراء أن يمنع

لنفسه، حتّى في آلامه، متعةً غريبة للعالم النّفسي، وذلك بأن يتخّذ من نفسه موضوع "تجربته الخاصّة".

باستمرار، بملاقط جراحية (وهو في الوقت نفسه الطّبيب والمريض)، يُعرّي عمّا يؤلم أعصابه، وبهذا، مثل من طبعه عصبي ومليءٌ بالأفكار، كلّ ما يفعله هو تهييج حساسيّته التي تفاقمت أكثر. مرتابًا في الأطّباء، يصبح في الوقت نفسه الطّبيب و"الذي يمارَسُ الطّب عليه" باستمرار، طوال حياته. يجرّب كلّ الوسائل وكلّ العلاجات التي يمكن تخيّلها، من التّدليك الكهربائي، والحميات الغذائية، إلى العلاجات الحموية؛ أحيانا يخفّف من إثارته بالبروميد، وأحيانا ينشّطها مجدّدا بخلطاتٍ أخرى.

تدفع به حساسيته للطّقس باستمرار للبحث عن مناخٍ خاص، عن مكان يكون مصنوعا من أجله، "طقس بلا روح". تارة هو في "لوغانو"، بسبب هواء البحيرة، وانعدام الرّياح، وتارة أخرى هو في "بفافيرز" و"سورينتو"؛ ثمّ يهيّأ له أنّ بإمكان حمامات "راكاز" أن تخلّصه من ذاته المؤلمة، أو أنّ المنطقة الطّبية في "سان موريتس"، ينابيع "بادن-بادن"، أو "ماريان باند" يمكن أن تفيده. خلال فصلِ ربيعٍ بأكمله، سيقع اختياره على "إنجادين" التي يكتشف شَبَهَ طبيعتها بطبيعتِه، بسبب هوائها "المُنعِش والمشبَّع بالأوزون"؛ ثمّ يأتي دور مدينةٍ في

الجنوب، "نيس"، بهوائها الجافّ، ثمّ "البندقية" أو "جنوة". يرغب مرّة في التّواجد في الغابات، ومرّة أخرى على ضفاف البحار، تارةً على ضفاف الأنهار، تارةً أخرى في مدن صغيرة هادئة، "بطعامٍ جيّد وخفيف".

وحده الرّب يعلم عددَ كيلومترات السّكك الحديدية التي قطعها هذا الهارب التّائه - fugitivus errans -، فقط ليكتشف ذلك المكان الرّائع الذي تتوقّف فيه أعصابه عن حرقه، وأعضاؤه على كونها دائمة التّهيج. شيئًا فشيئًا، يستخلص من تجاربه المرضية نوعًا من الجغرافية الطّبية لاستخدامه الخاص، مثل خاتم علاء الدّين، كي يتحكّم من خلالها أخيرا في جسده وسلام روحه. هو لن يفشل أمام أيّ رحلة مهما كانت طويلة: فبرشلونة داخلة ضمن مخطّطاته، ويفكّر أيضا في جبال المكسيك العليا، في أرجنتينا وحتّى اليابان. تحوّل تدريجيا كلٌّ من الوضعية الجغرافية، النّظام الغذائي الخاصّ بالمناخ، والأكل إلى عِلْمِه الخاصّ الثّاني.

في كلّ مكان، يسجّل درجة الحرارة، والضّغط الجوّي، يقيس بالميليمتر، باستخدام أجهز القياس المعتمدة على الضّغط المائي، كميّةَ هطول الأمطار في الغلاف الجوّي، ودرجةَ الرّطوبة السّائدة، كلّ ذلك من شدّة شَبَهِ جسده بمعوجة مخبرية، أو عمودِ الزّئبق في مقياس الضّغط. ونجد المبالغةَ نفسها في نظامه الغذائي. في هذا المجال أيضا، يوجد

"سِجِلّ" بأكمله، وجدولةً طبيّة كاملة من الاحتياطات. على الشّاي أن يكون من علامة معيّنة، ومضبّطًا حسب قوّة معيّنة كي لا يضرّه؛ كلّ غذاء يحتوي على اللحوم ضارٌ له، ويجب أن تُحضّر الخضراوات حسبَ طريقة معيّنة. رويدًا رويدًا، يُصبح هذا الهوس بالتّطبيب وبالتّشخيص سمةً مرضية وأنانية، وتوتّرًا، واهتمامًا مفرطًا بالذّات. لم يعذّب شيءٌ نيتشه بهذا القدر كما فعل هذا التّشريحُ الحيّ الأبدي. ومثلما هو الحال دائما، يعاني عالم النّفس ضِعْفَ ما يعانيه أيّ كان، لأنّه يشعر بالألم مرّتين: أولاهما حِسّيا، في الحقيقة، وثانيتهما من خلال مراقبته لنفسه.

لكنّ نيتشه عبقريّ التّناقضات العنيفة بامتياز. وعلى عكس جوته الذي عرف كيف يبتعد ببراعة عن الأخطار، لديه طريقة جريئةٌ للغاية في المواجهة والامساك بزمام الأمور.

يدفع بشدّة كلّ من علم النّفس، والاجتهاد الرّوحي (وقد حاولتُ تبيان ذلك) الرّجلَ السّريع التّأثر إلى المعاناة، وحتّى إلى هاوية اليأس؛ لكنّ علم النّفس بالتّحديد، والرّوح بالتّحديد هما من يعيدانه إلى الصّحة. مثل مرضه، يأتي شفاء نيتشه من المعرفة الرّائعة التي يمتلكها عن نفسه. يصبح علم النّفس هنا، بشكلٍ سحري طريقةً علاجية، تطبيقًا لا مثيل له "لفنّ الخيمياء" الذي يتبجّح باستطاعته "استخلاص قيمة ممّا لا قيمة له". بعد عقدٍ من العذاب المتواصل، هو "أدنى مستوى

من حيويّته" ، وظُنّ به أنّه قد ضاع بالفعل، بعد أن حطّمته أعصابه، واكتئابٌ لا علاجَ له، تُرِك للتّشاؤم، مهجورًا. ثمّ فجأةً ينقلب موقف نيتشه الرّوحي رأسًا على عقب بفضل شفاءٍ صاعقٍ وملهمٍ بحقٍّ، هو في آنٍ امتنانٌ وتخليصٌ للذّات، والذي يجعل قصّة عقله جدّ مأساوية ومثيرة.

فجأةً، يجذب نحوه المرضَ الذي يُلغِم أرضه، ويضعه على قلبه. وهذه لحظة غامضةٌ تماما (إذ لا يُمكن تحديد تاريخها بالضّبط)، لحظة إلهامٍ صاعق "يكتشف" من خلالها نيتشه مرضَه الخاص؛ -وبينما هو مُندهش من أنّه لا يزال على قيد الحياة، وأنّه وخلال فترات اكتئابه الأحلك، والفترات الأكثر إيلاما من وجوده، لم تكفّ إنتاجيّته عن التّزايد-، إذ به يؤكّد عن قناعة عميقة أنّ معاناته وحرمانه جزءٌ، بالنّسبة له، من "السّبب" ، من السّبب المقدّس لوجوده، السّبب الوحيد الذي يُعتَبر مُقدّسا له.

واعتبارًا من تلك اللحظة التي لم تعد روحه تشفق فيها على جسده، ولم تعد تُشارك في معاناته، يرى لأوّل مرّة حياتَه من منظور جديد، ويحمل بعدها مرضه معنى أعمق. بذراعين مفتوحتين، يتقبّله واعيا في قَدَره كضرورة، وباعتباره "مدافعا عن الحياة" مُتعصّبًا، يُحبُّ كلّ شيء في وجوده، حتّى أنّه ينشد ترنيمة لمعاناته مثلما يؤكّده زرادشت،

ذلك السّعيد: "مرّة أخرى! مرّة أخرى، للأبد!".

تتحوّل عنده المعرفة البسيطة إلى اعتراف، والاعتراف إلى امتنان: إذ أنّه وفي هذا التأمّل السّامي الذي يرفع ببصره بعيدا فوق معاناته الخاصّة، والذي لا يرى في حياته سوى مسار ليصل إلى نفسه، يكتشف (بتلك الغبطة المفرطة التي يمنحها له سحر الأشياء المتطرّفة) أنّه ليس مُرتبطًا ولا مدينًا لأيّ قوّة على وجه الأرض غير مرضه، كما يكتشف بأنّه بالتّحديد مدينٌ لأفظعِ جلّادٍ بأغلى ما يملك: الحريّة، حريّة الوجود الخارجي، حريّة العقل، إذ أنّه وفي كلّ مكان كاد أن يستسلم فيه للرّاحة، للكسل، كاد فيه أن يثقل ويفقد تفرّده، بأن يتحجّر قبل الأوان في وظيفة، أو مهنة واتّجاه فكري، كان المرض هو من طرده تلك الحالة بعنف ضربة مهمازه؛ ويدين أيضا للمرض لأنّه أُنقذ من الخدمة العسكرية وأُعيد إلى العلم، ويدين له أيضا لأنّه لم يبق مجمّدا في ذلك العلم، وفقه اللّغة؛ فقد جعله يخرج من حلقة جامعة "بازل" ليُدخِله إلى "التّقاعد"، ومن ثمّ إلى العالم، بمعنى أنّه يعيده إلى ذاته.

يدين لعينيه المريضتين لأنّهما "حرّرتاه من الكتاب"، والتي كانت "أعظمَ خدمةٍ أسديتها لنفسي". انتزعه المرض (بطريقة مؤلمة، لكنّها مفيدة) من كلّ اللّحاء الذي كان يُهدِّد بالتّكوُّن حولَه، ومن كلّ

الارتباطات التي بدأت تُطوّقه. يقول شخصيا: " يحرّرني المرض إن جاز التّعبير من خلال تأثيره الخاص"، كان المرض بالنّسبة له بمثابة القابلة التي وَلّدَت الرّجل بداخله، والمعاناة التي تسبّب له بها كانت بمثابة آلام المخاض. بفضله، لم تصبح الحياة له روتينًا، بل تجديدًا، واكتشافًا: "اكتشفت الحياة، بطريقة ما، مثلَ شيءٍ جديد، بما في ذلك أنا شخصيا".

لأنّ (وهذه هي الطّريقة التّي يمجّد بها هذا الرّجل المُعذّب بامتنانٍ آلامَه في ترنيمةٍ عظيمةٍ تشدو بالألم المقدّس) المعاناة وحدها تنتج العلم. "صحّة الدّب" التي تُعَدّ موروثًا بسيطًا، والتي لم تُزَعْزع أبدًا، تكتفي بذاتها دون خوف، وتفتقد إلى الوضوح. الصّحة لا ترغب في أيّ شيء، ولا تطرح الأسئلة، ولهذا ينعدم الجانب النّفسيّ عند الأصحّاء. فكلّ علم يأتي من المعاناة، "يسعى الألم دائما لمعرفة الأسباب، بينما تميل المتعة إلى البقاء في مكانها، دون الالتفات للنّظر خلفها".

نصبح "دائما أكثر دقّة في الألم". تحرث المُعاناةُ دائمة البحث والتّنقيب أرضَ الرّوح، وعمل الحفر الدّاخلي المؤلم هذا هو الذي يهيّئ مثل المحراث التّربةَ للحصادِ الرّوحي الجديد. "الألم العظيم هو مُحرّر الرّوح الأخير، وحده يجبرنا على النّزول إلى آخر مكان في أعماقنا"، وبالضّبط من كاد المرض أن يكون مُميتًا له، لديه الحقّ في

أن يقول بفخر : " أنا أعرف الحياة بشكلٍ أفضل، لأنّني كدتُ في عديد المرّات أن أفقدها".

لم يتخطّ نيتشه آلامه بخدعة، بنكران، ببدائل ومسكّنات أو من خلال إضفاء المثالية على محنته الجسدية، بل بالقوّة المتأصّلة لطبيعته، بالعلم: يكشف الملك "خلّاق" القيم لنفسه قيمةَ مرضه. معذّبٌ بطريقة عكسية، هو في البدء يفتقد الايمان، والذي يعاني من أجله، لكن وفقط من خلال الآلام، من التّعذيب يستمدّ إيمانه. رغم ذلك، لا يكتشف علمه الكيماوي قيمةَ المرض فحسب، بل أيضا قطبَه المعاكس: قيمة الصّحة؛ وحده اتّحادهما من يحقّق الحياة، هذا التّوتّر الدّائم للتّجربة، ولنشوةٍ يندفع بفضلها الانسان المكتمل إلى اللّانهاية. كلاهما ضروري: المرض كوسيلة، والصّحة كغاية؛ المرض كمسار، والصّحة كنقطة وصول.

إذ ليست المعاناة بالمعنى النّيتشي إلّا الضّفةَ المظلمة للمرض، الضّفة الأخرى مضاءةٌ بضوءٍ لا يوصف: يسمّى الشّفاء، لا يمكن الوصول إليه إلّا عن طريق سلوك ضفّة المعاناة. لكنّ الشّفاء، أي استعادة الصّحة، يعني أكثر من مجرّد بلوغ حالةِ الحياة الطّبيعية؛ إنّه ليس مجرّد تحوّل، بل أكثر من ذلك بشكل غير محدود؛ إنّه ارتقاء، صعود وزيادة في الحسّ. نخرج من المرض "بجلد جديد"، أكثر حساسيّة، مع ذوق

أكبر للمتعة، ولسان متمرّن بشكل أفضل لتذوّق كلّ الطّيبات، حساسية أسعد "وبراءة ثانية أخطر وسط السّعادة"، مثل الأطفال، وأكثر دقّة من أيّ وقتٍ مضى؛ وهذه الصّحة الثّانية التي تأتي بعد المرض، هذه الصّحة التي هي "ثمرة الكفاح والمعاناة"، والتي ليست سلعة مجانيّة تمّ تحصيلها بسهولة، بل كنزا طال انتظاره، بُحِثَ عنه بعناء كبير، ودفعت مقابله مئة تنهيدة، صرخة، وألم، هو حيّ مئة ضعفٍ من أيّ إحساس بالرّفاه الذي يعرفه من يتمتّع بصحّة جيّدة طوال الوقت. من ذاق مرّةً الحلاوةَ المرتعشة، النّشوةَ المنعشة لهذا الشّفاء، دائما يحترق شوقا ليحسّ مجدّدا بالشّعور ذاته، ويرمي بنفسه في طوفان عذابات النّار والكبريت الملتهِمة فقط ليجد من جديد ذلك "الإحساس السّاحر بالشّفاء"، ذلك الانتشاء الذّهبي الذي يعوّض بالنّسبة لنيتشه، متجاوزًا إيّاها ألف مرّة، كلّ المنشطّات المبتذلة للكحول والنّيكوتين.

لكن بالكاد اكتشف نيتشه معنى ألمه ولذّة الشّفاء العظيمة، فإذا به يريد أن يجعل منها رسالة تبشيرية، وأن يرى فيها معنى الكون. مثل كلّ من يتملّكهم الشّيطان، هو عبد لنشوته، ولا يشبع من هذا التّناوب بين اللّذة والألم المبهر؛ يرُيد من الألم أن يعذّبه بطريقة أعمق كي يتمكّن من الارتقاء في الفضاء الأسمى للذّة السّعيدة للشّفاء، فضاءً كلّه صفاءً وحيوية. في حالة الثّمل المتلألئة والحماسية، يخلط تدريجياً

بين رغبته الشّديدة في الشّفاء، والشّيء نفسه، الحمّى التي تصيبه بالحيوية، ودوار السّقوط بزيادة في القوّة. الصّحة! الصّحة! يلوّح هذا الرّجل المخمور بذاته بهذه الكلمة رافعا إيّاها فوقَه مثل العلم: لا بد وأنّ هذا هو معنى الكون، هدف الحياة، والمعيار الوحيد لجميع القيم. وذاك الذي تلمّس كالأعمى في الظّلام طيلةَ عشرات السّنين، متنقّلا من ألم لألم آخر، يختنق الآن في صراخه في ترنيمة تحتفل بالحيوية، بالقوّة العنيفة المغرورة. بألوان نارية مشتعلة، ينشر عَلَم إرادة القوّة، إرادة الحياة، إرادة أن يكون قاسيًا بلا رحمة، ثمّ يُناوِل هذا العَلَم للإنسانية القادمة-دون أن يدرك أنّ القوّة التي تحييه وتسمح له بأن يرفع عاليًا تلك الرّاية، هي القوّة نفسها التي تشدّ وتر القوس ممسكةً بالسّهم الذي سيرديه قتيلا.

صحّة نيتشه الأخيرة هذه، والتي تحفّز نفسها في تمجيدها إلى غاية المديح المبالغ فيه، ما هي إلّا إيحاءٌ ذاتي، وصحّة "مخترعة"، بالضّبط في اللّحظة التي يرفع فيها يده إلى السّماء، في نشوة اللحظة التي يمدح (في كتابه "هو ذا الانسان") صحّتَه الرّائعة، مُقْسِما أنّه لم يكن أبدًا مريضًا ولا منهارا، بدأ يقصف الرّعد في دمه بالفعل. ما الشّيءُ الذي ينشد وينتصر بداخله حياتَه، بل هو موته الذي قد بدأ؛ ولم تعد الرّوح التي يكوّنها العِلم، بل الشّيطان هو من أمسَك بضحيّته.

ما يضنُّه نورًا وهو على خطأ، وما يضنّها حرارةً حمراء لدمه تخفي جراثيمَ مرضه القاتلة، في وقتنا الحالي، بإمكان النّظرة السّريرية لأيّ طبيب أن تُشخّص بوضوحٍ في ذلك الإحساس الرّائع بالرّفاه الذي تملّكه في السّاعات الأخيرة، ما نسمّيه اليوم بالنّشوة، حالة النّعيم والسّعادة النّموذجية التي تسبق النّهاية. بالفعل، لم يعرض الضّوء الفضّي الذي انتشر في ساعاته الأخيرة أمامه سوى اهتزازاتِ فضاءٍ آخر، فضاءِ الشّيطان، فضاء العالم الآخر: لكنّه في سكرته، لم يكن يعلم. أحسّ فقط بنفسه مُضاءً بكلّ روعةٍ ونعمةِ الأرض.

تنبثق منه الأفكار مثل النّار، ترتجف اللّغة بقوّة بدائية، من خلال كلّ مسام خطابه، وتغرق الموسيقى روحه: أيًا كان المكان الذي ينظر إليه، يرى السّلام يشع. يبتسم له النّاس في الشّارع، وكلّ رسالة هي رسالة إلهية: متألّق من فرط السّعادة، يصرخ في رسالته الأخيرة الموجّهة إلى صديقه "بيتر جاست" : "غنّ لي أغنية جديدة. تغيّر العالم كليًا، والسّماوات كلّها تسعد" . وبالتّحديد، من هذه السّماء المتحوّلة بالذّات تخرج النّار التي تصيبه، تمزج المعاناة بالنّعيم في ثانيةٍ واحدة غير قابلة للانشطار. يدخل طرفا الشّعور في الوقت نفسه في صدره اللاّهث، وفي صدغيه المرتعدين، يُنطِقُ الدّم في آنِ الحياةَ والموتَ في موسيقى متفرّدة ورهيبة بذوق نهاية العالم.

ما يهمّ فعلا هو الحيويّة الأبدية، لا الحياة الأبدية

"دون خوان" المعرفة

يعيش "إيمانويل كانت" مع المعرفة مثلما يعيش مع زوجةٍ شرعية؛ وطيلة أربعين عامًا، ينام بجانبها على السّرير الرّوحي نفسه، لينجب منها سلالةً ألمانية من الأنظمة الفلسفية، سلالة لا يزال يسكن المنحدرون منها إلى غاية اليوم عالمَنا البرجوازي. روابطه مع الحقيقة تشبه الزّواج الأحادي تمامًا، مثلما هي روابط جميع أبنائه الرّوحيين: "شيلينغ"، "فيخته"، "هيجل" و"شوبنهاور". ما يدفعهم نحو الفلسفة هو رغبةٌ في النّظام، رغبةٌ ليس فيها أدنى أثر شيطاني، هي إرادة ألمانية حسنة النّية، موضوعيّة واحترافية، تصبو لضبط العقل وتأسيس فنّ معماريّ مُنظّم للوجود. لدى جميعهم حبُّ الحقيقة، وهو حبٌّ صادق، ثابت ووفيٌّ كليًا.

لكنّه مجرّدٌ تمامًا من كلّ إيروتيكيّة، ومن الرّغبة الجامحة في الحَرْقِ والاحتراق؛ يرون في الحقيقة، في حقيقتهم، زوجةً، ومِلْكًا مضمونا لن يتخلّوا عنه حتّى الممات، ولن يكفّوا أبدًا عن الوفاء له. ولهذا السّبب،

يوجد دائمًا في علاقتهم مع الحقيقة لمسةٌ معيّنة تُذكّر بالزّواج وبالحياة المنزلية: وبالفعل، فقد بنى كلّ واحد منهم مسكنًا ليضع فيه الخطيئةَ والسّرير، بمعنى نظامه الفلسفي المضمون. ويشتغلون بيدٍ احترافية مُتقِنة، بالمسلفة والمحراث، على هذه الأرض التي هي ملكهم، حقل العقل هذا الذي غزوه لصالح البشرية بين غابات الفوضى البدائية. بحذر، يدفعون دائما بحدود معرفتهم إلى أبعد، وسطَ ثقافة زمنهم، ويضاعفون باجتهادهم وعرقهم الحصادَ الرّوحي.

وعلى العكس من ذلك، يأتي شغف نيتشه للمعرفة من طبع مختلفٍ تمامًا، من عالمِ المَشاعر التي تقع إن جاز التّعبير في حدود النّقيض تماما. موقفه تجاه الحقيقة شيطانيّ تمامًا؛ هو شغفٌ مرتعد، بنفَسٍ حارق، جَشِعٌ ومتوتّر قلق، لا يشبع، ولا يُستنفَذ أبدًا، لا يتوقّف عند أيّ نتيجة، ويُتابع بعد كلّ الإجابات طرحَ تساؤلاته المتعجّلة والمتردّدة. لا يجذب أبدًا نحوه علمًا بطريقة مستدامة، ليجعل منه، بعد أن يؤدّي اليمين، ويقسم على الوفاء، زوجتَه، "نظامه"، "عقيدته".

كلّ الحقائق تُثيره، ولا يمكن لأيٍّ منها أن تُبقيه لها وحدها. ما إن تفقد مشكلةٌ عذريتَها، سحرَها، وسرّ حيائها، حتّى يتخلّى عنها دون شفقة، ودون غيرة من الذين سيأتون بعده، تماما مثل دون خوان- شقيقه في الغريزة- الذي وُجِد من أجل الألف والثّلاثة - mille e

tre - دون أن يكترث لأمرهن بعدها. هو يبحث، مثل أيّ زير نساء مُغوٍ، من خلال جميع النّساء عن "المرأة"، كذلك يبحث نيتشه، من خلال كلّ المعارف عن "المعرفة" - المعرفة التي تبقى أبديا غير حقيقية، ويستحيل الوصول إليها تمامًا. ليس ما يثيره حدُّ الألم، حدُّ اليأس، هو الإغراء، ولا التّملك، ولا حتّى المتعة، بل دائما وأبدا التّساؤل، البحث، الصّيد. حبّه عَدَمُ يقينٍ وليس يقينًا، وبالتّالي، هو متعةُ "حُوّلَتْ نحو الميتافيزيقا" والمتمثّل في "الحبّ-المتعة" للمعرفة، إلى رغبة شيطانية في الإغواء، والتّعرية، والولوج بشغف، واغتصاب كلّ موضوع روحيّ - المعرفة هنا بمعناها التّوراتي، الذي "يعرف" فيه الرّجلُ المرأةَ، وينتزع منها سرّها. هو يعلم، وهو منتهجُ النّسبية عندما يتعلّق الأمر بالقيم، ألّا أحد من أفعال معرفته، ولا أيّ تملّك من قبل عقل متحمّس، هو في الحقيقة "معرفةٌ نهائية"، كما يعلم أنّ الحقيقة، بالمعنى الأخير للكلمة، لا تترك نفسها تُملَك من طرف أيٍّ كان.

"كَمْ من الأشياء تُفلِتُ من ذاك الذي يظنّ أنّه يمتلك الحقيقة!".

ولهذا السّبب، لا يرتبط نيتشه أبدا في زيجة، بغرض الاقتصاد والتّوفير والحفظ، لا يشيّد بيتًا روحيا، يريد (أو ربّما مجبرٌ هو بسبب غريزة التّرحال في طبيعته) أن يبقى إلى الأبد دون حيازة أو أملاك،

"النّمرود" الوحيد الذي يحمل سلاحه التّائه في غابات العقل كلّها، والذي لا يملك لا سقفا يأويه، ولا امرأة، لا ولدا ولا خادما، لكنّه يمتلك من ناحية أخرى فرح ولذّة الصّيد؛ مثل دون خوان، هو لا يحبّ اللذة التي يطولها الشّعور بل "لحظات العظمة والهيجان"؛ لا تجذبه سوى مغامرات العقل، ذلكَ "الخطر الممكن" الذي يجعلك مليئًا بالحماسة، ويثيركَ طالما تلاحقه، لكنّه لا يُشبِع بمجرّد الإمساك به، ما يريده ليس فريسةً، بل (كما يصف نفسه شخصيا في كتاب "دون خوان المعرفة") ببساطة "الرّوح، دغدغة ومتعة الصّيد ،ومكائد المعرفة- إلى غاية بلوغ أعلى وأبعد نجماتها – لكي لا يتبقّى له في الأخير أيّ شيء يصطاده باستثناء أكثر الأشياء ضررا في المعرفة، مثل الشّارب الذي ينتهي به الأمر بشرب الأفسنتين، وكحولات هي في الحقيقة أحماضٌ سامّة ".

ففي مفهوم نيتشه، ليس دون خوان أبيقوريًا، ولا غارقًا في الملذّات؛ لكي يكون كذلك، يفتقر هذا الأرستقراطي، هذا النبيل صاحب الأعصاب الرّقيقة إلى راحة الهضم، والاحساس الرّائع بالشّبع الكسول، وإلى التّباهي الذي يستعرض انتصاراته ورضاه التّام. صائد النّساء (مثل نمرود الرّوح) هو نفسه مُطارَدٌ من قبل غريزة لا تُخمَد؛ المُغوي عديم الضّمير هو نفسه يُغريه فضوله المُشتعل؛ إنّه مُغري يغريه اغراءُ كلّ النّساء دائما وأبدًا في براءتهنّ الخفيّة، تماما مثلما يسأل نيتشه،

يفعل ذلك فقط بهدف السّؤال، من أجل المتعة النّفسية التي لا تُخمَد.
بالنّسبة لـ"دون خوان"، يكمن السّر فيهنّ جميعا، وليس في واحدة منهن وحدها، في كلّ واحدةٍ لمدّة ليلةٍ، وفي ولا واحدةٍ منهنّ للأبد: وهكذا بالضّبط، بالنّسبة لعالم النّفس، لا تتواجد الحقيقة في كلّ المشاكل سوى للحظة واحدة، ولا وجود لحقيقةٍ تتواجدُ للأبد.
ولهذا السّبب لا يوجد في حياة نيتشه الفكرية نقاط استراحة، لا وجود لسطحٍ هادئٍ، حياته عاكسةً مثل المرآة: جارفة، متغيّرة، مليئة بانعطافات غير متوقّعة، وانقلاب مفاجئ وتيّارات عنيفة. عند باقي الفلاسفة الألمان، فلسفتهم عبارة عن نَسْجٍ يدوي مريح لخيطٍ تمّ فكّ تشابكه من قبل؛ فهم يتفلسفون بهدوء، جالسين على مقاعدهم، أطرافهم مسترخية، أثناء تفكيرهم، بالكاد يمكن ملاحظة ارتفاعٍ في ضغط الدّم في الجسد، أو الحرارة في قَدَرِهم.
لا نشعر عند "كانت" أبدا بذلك الانطباع المؤثّر لعقلٍ تملّكته أفكاره مثل مصّاص دماء، عقل يُعاني بشكلٍ مؤلم بسبب الضّرورة المروِّعة التي تدفعه ليُبدع ويطوّر الأفكار؛ أو "شوبنهاور"، ابتداءً من عامه الثّلاثين، بعد انتهائه من كتابة مؤلّفه "العالم إرادةً وتمثلا"، ها هو ذا يشبه موظّفًا راضيا على وشك التّقاعد بينما يشعر بألف مرارةٍ صغيرةٍ بسبب مسيرة مهنية راكدة. يسير جميعهم بخطى واثقة

وأكيدة على مسار اختاروه بعناية، بينما يبدو نيتشه مُطاردًا، مدفوعًا نحو المجهول دائما. لهذا السّبب اتّخذ تاريخ نيتشه الفكري (مثل مغامرات دون خوان) شكلاً دراميا بالكامل، هو سلسلةٌ من الحلقات المُفاجئة والخطيرة، مأساة لا توجد بها أيّ نقاط للتّوقف، برحلات لا تنتهي، تنتقل من مغامرة لأخرى، أكثر حدّة، ليصل بها الأمر في الأخير حتميا إلى السّقوط والتّلاشي في الهاوية السّرمدية.

وبالتّحديد، غياب الرّاحة في البحث، وضرورة التّفكير هذه التي لا تنتهي، مع هذا الاكراه الشّيطاني للمُضيّ قدما، هي الأشياء التي تمنح لهذا الوجود المتفرّد جانبًا مأساويا لا نظير له، وتجعله بالنّسبة لنا جذّابا مثل عمل فنّي (لأنّه يفتقر كليّا لذلك الجانب الاحترافي والبرجوازي الهادئ).

نيتشه شخص ملعون، محكوم عليه بالتّفكير المستمر، مثلما هو محكوم على صائد الأسطورة أن يصطاد إلى الأبد؛ أصبح الشّيء الذي كان مصدر متعةٍ له عذابَه، بلائه، واكتسب نَفَسَهُ، أسلوبه، لهثُه حماسةَ وضربات الفريسة المُطاردة؛ تلهث روحه كروحٍ لا ترتاح أبدًا، روح لا تهدأ أبدًا. ولهذا، تظلّ شكواه دائما مؤثّرة للغاية، وكذلك الصّراخ الذي يطلقه ابتداءً من اللّحظة التي يرغب فيها بالسّلام، والمتعة والرّاحة، لكنّ شوكة عدم الرّضا الدّائم تخترق روحه المُنهكَة وتنكّل

بها: "نحبُّ شيئا، وبالكاد يتحوّل ذلك الشّيء إلى حبٌّ حتّى يقولَ الطّاغيةُ الذي بداخلنا (والذي بإمكاننا تسميته "الأنا الأعلى"): هذا بالضّبط ما يتوجّب عليك التّضحية به من أجلي. وبالفعل، نضحّي به، لكن دون أن نتألّم، نتعذّب أو نحترق ببطءٍ على نار هادئة".

ويطلق نيتشه صرخة مثل صرخة الفريسة الهاربة التي يصيبها السّهم أثناء عدوها، عندما يصيح وشيطان المعرفة يطارده: "يوجد في كلّ مكان بالنّسبة لي بساتين "أراميدا"، ومع ذلك، تمزّق جديد، ومرارةُ قلبٍ جديدة. ويتعيّن عليّ أن أرفع قدمي، قدمي المتعبة الجريحة، ولأنّني مُجبَر على فعل ذلك، ألتفت بنظرة ساخطة على أجمل الأشياء التي لم تتمكّن من إمساكي، بالتّحديد هي جميلة لأنّها لم تتمكّن من الإمساك بي".

لا نجد صرخات داخلية مماثلة، أو تأوّهات لا تقاوم، انطلقت من أعماق الألم، في كلّ ما أُطلقَ عليه في ألمانيا قبل نيتشه اسمَ "فلسفة": ربّما انفجرت حماسةً شبيهة بها عند الرّوحانيين في العصور الوسطى، أو المهرطقين، وقدّيسي العصر القوطي (بصمت أكبر وأفواهٍ مغلقة، ربّما)، وفعلت ذلك من خلال كلماتٍ تلتحف رداء الكهنة الدّاكن.
"باسكال" أيضًا الفارق بدوره بكلّ روحه في نيران مُطهِّر الشّك، يعرف هذا الاضطراب، تحطيم الرّوح الدّائمة البحث هذا، لكنّ لا

تهزّنا أبدا، لا عند "كانت" ولا عند "ليبنيز"، "هيجل" أو "شوبنهاور"، هذه النّبرة الابتدائية. إذ مهما كانت درجة الوفاء عند هذه العقول العِلمية، ومهما بدا تركيزهم على الشّمولية شجاعًا وعازمًا، فهم رغم ذلك لا يرمون بكامل كيانهم، قلبًا وأحشاءً، أعصابًا وجسدًا، بكلّ مصيرهم في لعبة المعرفة البطولية. هم لا يحترقون إلّا كما تحترق الشّموع، وذلك يعني أنّهم يحترقون من الأعلى، من الرّأس، من الرّوح. يظلّ جزء من وجودهم، ذلك الجزء الزّمني الخصوصي، والذي يعدّ بالتالي الجزءَ الأكثر حميمية، دائمًا في مأمنٍ من القدر، بينما يُخاطر نيتشه بنفسه تمامًا وكليًا، وباستمرارٍ يقتربُ من الخطر "ليس فقط بقرونِ استشمارِ فكرةٍ فاترةٍ وفضولية"، بل بكلّ مُتَعِ وعذابات دمه، بكلّ اندفاعِ قَدَره.

لا تأتي أفكاره فقط من فوق، من القَدَر، بل هي نتاجٌ محمومٌ لدم مُطارَدٍ ومُتحمّس مُستثار، وأعصاب تهتزّ بعنف، وحواس لم تُشبَع، واحتضان الشّعور المُطلق بالحياة: ولهذا فأفكاره، كما هو حال أفكار "باسكال"، تمتدّ بمأساوية على شكل قصّة روحٍ شغوف؛ إنّها تَكْمِلَةٌ لمغامرات محفوفةٍ بالمخاطر تكاد تكون مميتة، دُفِع بها إلى أقصى الحدود – مأساةٌ حيّة تؤثّر فينا بعمق (بينما لا توسّع سِيَرُ الفلاسفة الأخرى الأفقَ الفكري ولو ببوصة واحدة). ومع ذلك، وحتّى في أشدّ المحن

مرارةً، لن يرغب في استبدال حياته، "حياته الخطرة"، بحياتهم التي تبقى مثالًا للتّنظيم، فنيتشه يكره بالتّحديد ما يبحث عنه الآخرون في المعرفة، -aequitas animae-، راحةً ثابتةً للرّوح، وسورًا ضدَّ فيضِ المشاعر، لأنّ ذلك يقلّل من الحيوية. في "الصّراع البائس من أجل الوجود"، لا يتعلّق الأمر بالنّسبة له، هو المأساوي، الرّجل البطولي، بأمانٍ إضافي، أو حمايةٍ من العواطف المتحرّكة.

لا، لا أمان، ولا إشباع أو قناعة بما نملك! "كيف يمكن التّواجد وسط كلّ هذا الشّك الرّائع، وتعدّدية الوجود، دون التّساؤل، دون الارتعاش من الفضولِ ومن اللّذة التي يمنحها التّساؤل!"، يقول نيتشه ساخرًا من العقول الملازمة للبيت، والتي تشعر سريعا بالرّضا. فليتجمّدوا في يقينهم البارد، فليتقوقعوا داخل صُدَفِ أنظمتهم؛ ما يجذبه هو التّدفق الخطر، المغامرة، التّعدد المغري، والإغراء المُتلألئ، البهجة الأبدية وخيبة الأمل السّرمدية.

فليستمرّوا في ممارسة فلسفتهم في منزل أنظمتهم الدّافئ، مثلما تُمارس التّجارة، بالتّنمية النّزيهة والتّوفير في ممتلكاتهم: لا تجذبه سوى اللّعبة، لعبة وضع ثروته المطلقة على المحكّ، وجوده الشّخصي. لأنّه، وباعتباره ذلك المغامر، هو لا يرغب حتّى في امتلاك حياته: وهنا أيضا يرغب في بطولة إضافية: "ما يهمّ فعلا هو الحيويّة الأبدية، لا

الحياة الأبدية".

تظهر راية القرصان الأسود لأوّل مرّة في بحار الفلسفة الألمانية مع نيتشه: رجل من نوع مختلف، من قبيلة مختلفة، نوع جديد من البطولة، فلسفة لم تعد تُقدّم تحت رداء الأساتذة والعلماء، بل مُدرَّعةً ومسلّحة استعدادًا للكفاح. قبله، اكتشف آخرون، كانوا بدورهم بطوليين وجريئين، بحّارة الرّوح، قارّاتٍ وإمبراطوريات؛ لكنّ تمّ ذلك الاكتشاف بنيّة تُقدّم الحضارة، نيّة نفعية، غزو لفائدة الإنسانية، لتكملة الخريطة الفلسفية من خلال التّوغل بشكلٍ أبعد في أرض الفكر المجهولة.

غرسوا عَلَم الرّب أو عَلَم الرّوح على أراضٍ جديدة احتلّوها، وشيّدوا مُدنًا، معابدًا وطرقات جديدة، في حداثة المجهول، ليأتي بمدهم الحكّام والإداريون لحرث الأرض المُكتَسبَة وتحصيل منتوجها - المعلّقون والأساتذة، ورجالات الثّقافة. لكنّ الغاية النهائية لتعبهم كانت دائما الرّاحة، السّلام، والاستقرار: أرادوا إثراء ممتلكات العالم، ونشر الأعراف والقواعد الأساسية والقوانين، بمعنى نظام أعلى وأسمى. لكنّ نيتشه، وعلى العكس من ذلك، ظهر في الفلسفة الألمانية كظهور القراصنة في نهاية القرن السّادس عشر في الإمبراطورية الإسبانية - والذين كانوا سِربًا من الخارجين عن القانون - desperados

- المتوحّشين، والمتهوّرين الذين لا يكبحهم أيّ شيء، بلا وطن، بلا حاكم، بلا ملك، أو عَلَم، بلا مأوى أو بيت. مثلهم، هو لا يحتلّ أيّ شيء لنفسه، أو لأيٍّ كانَ يأتي من بعده، لا يفعل ذلك من أجل ربّ، ولا ملك أو عقيدة، بل فقط من أجل سعادة الاحتلال، فهو لا يريد امتلاك أيّ شيء، أو الحصول على أيّ شيء، أو احتلال أيّ شيء.

هو لا يعقد معاهدةً ولا يبني منزلًا؛ يحتقر قوانين الحرب التي وضعها الفلاسفة، ولا يبحث عن مُريدٍ أو تابع؛ هو، مُفسد المتع لكلّ "راحة بنيّة"، لكلّ استقرار مريح، لا يرغب سوى في النّهب، وتدمير نظام المِلْكية، وسلام البشر الأكيدِ المُستَلذ؛ يريد فقط أن ينشر بالحديد والنّار حيويةَ العقل اليقظ باستمرار، والتي هي بالنّسبة له ثمينة كما هو ثمين النّوم القاتم الباهت لأصدقاء السّلام. يظهر بجرأة، ويُسقِط حصون الأخلاق، حواجز القانون؛ لا يرحم أيًا كان، لا يوقفه أيُّ حرم كنسي أو ملكي.

خلفه، كما بعد غزو القراصنة، نجد الكنائس المُنتهَكة، والمعابد الألفية مُدنَّسة، مذابحًا مُدمّرة، ومشاعر مُهانَة، قناعاتٍ مُغتالة، وحواجز أخلاقية مُحطَّمة، أفقًا يحترق، فانوسًا كبيرًا شنيعًا من الجرأة والقوّة. لكنّه لا يلتفت أبدًا، لا ليتمتّع بما احتلّه، ولا ليجعل منه ملكيّته: المجهول، الذي لم يكتشفه بعد، هو منطقته الأبدية،

ولذّته الوحيدة تكمن في أن يمارس قوّته بأن "يعكّر صفو النّائمين". لا ينتمي لأيّ عقيدة كانت، ولم يقسم على الولاء لأيّ بلد كان، نكّس على الصّاري عَلَم اللّاأخلاقي الأسود، وأمامه، يمتدّ الأفق المقدّس، عدم اليقين الأبدي الذي يُحسّ بطريقة شيطانية أنّه الشّقيق، يظلّ يُجهّز باستمرار لرحلاتٍ خطرة جديدة. حاملاً سيفه في يده، وبرميل البارود عند قدميه، يبعد سفينته عن الشّاطئ، ووحيدًا في كلّ المخاطر، يغنّي لنفسه تمجيدًا لذاته أغنيته الرّائعة للقراصنة، أغنية نيران اللّهب، أغنيته المصيرية.

نعم، أَعْرِفُ من أين أَتَيْت
دائمَ الجوع كلهيبٍ،
أشتعل وأحترق،
ما أُمسك به يصبح نورًا،
وفحمًا ما أتركه،
بَلَى، بكلّ تأكيدٍ، لهيبٌ أنَا

من أجلك، فقط وصيّة واحدة: كُنْ طاهرًا.

شغف الصّدق

عزم فريدريك نيتشه في وقت مبكّر من حياته على كتابة مؤلّف بعنوان- Passio nuova- أو شغف الصّدق. لكنّه لم يفعل ذلك أبدًا. بل (الذي فعله كان أفضل) عاشه تماما. إذ أنّ صدقًا شغوفًا ومتعصّبا، حبًّا معظّمًا للحقيقة ومرفوعًا إلى درجة العذاب هو ما لعب الدّور الأساس في خليّة نيتشه الإبداعية، وتطوّرها: يوجد هناك، مغروسًا بعمق في جسده، في عقله، في أعصابه، لولبٌ فولاذي يُبقي فكره مشدودًا دائما، وهو ما يجعل فكره منتصبا ليواجه بقوّة فطرية قاتلة كلّ مشاكل الحياة.

الإخلاص، النّزاهة، النّقاء، نحن مندهشون نوعًا ما عندما لا نجد عند "اللاأخلاقي" نيتشه على وجه التّحديد أيّ غريزة بدائية وغريبة، عدا ما يسمّيه البرجوازيون والبقّالة والباعة والمحامون بفخر أيضًا فضيلتهم: الصّدق، الإخلاص إلى غاية اللّحد البارد، فضيلةً حقيقيّة لفقراء الرّوح، شعور عادي وتقليديّ تمامًا. لكن عندما يتعلّق

الأمر بالعواطف، فشدّتها هي كلُّ شيء، بينما يبقى محتواها مجرّد لا شيء؛ وبإمكان من تملّكهم الشّيطان أن يعيدوا تبنّي المفهوم الذي أُغلِق عليه وعُدِّل منذ فترة طويلة لينقلوه إلى فوضى إبداعية، إلى فضاءٍ من التّوتر اللّامتناهي. تبثّ العواطف حتّى في أقلّ العناصر أهميّة والمُتهالكة منها لونَ النّار ونشوة الإثارة: يصبح ما يُمسِك به من تملّكه الشّيطان دائمًا فوضويًا، تملأه قوّة جامحة.

لهذا، لا علاقة لصدق نيتشه بصدق النّاس المنضبطين؛ حبّه للحقيقة هو شعلةٌ حقيقية، هو شيطانٌ حقيقة، شيطان وضوح، حيوانٌ ضارٍ في بحثه الدّائم عن فريسة، موهوب بأدقّ غرائز الشّم، والغرائز الأعنف للوحوش المُفترسة. لا علاقة لصدقٍ مثل صدق نيتشه بغريزةِ الحذرِ المُطوَّع، المروّض، والمعدّل كليًا كصدق التّجار، ولا علاقة له بالصّراحة الفظّة والوحشية كصراحة "ميشيل كولهاس"، لم يُسارع العديد من المفكّرين (على غرار، لوثر) والذين يضعون غمّاماتٍ على اليمين والشّمال من أعينهم بغضبٍ كي لا يمشوا إلّا في مسارِ حقيقةٍ واحدة، حقيقتهم.

مهما كان عنيفا وقاسيا شغف الحقيقة عند نيتشه، فهو يظلّ دائما شديد العصبية، وواسع الثّقافة لدرجة لا تسمح له بأن يصبح ضيّق الأفق أو متحجّرا: هو شغفٌ لا يتعثّر ولا يعاند، بل يتنقّل من إشكال

لآخر، يرتجف كاللّهب، يحرق كلّ إشكال وينيره، هو شغفٌ لا يشبع. وهذه الازدواجية رائعة: فعند نيتشه دائما يحافظ كلّ من الشّغف والصّدق على استمرارية أحدهما الآخر. ربّما لم يملك قبله أيّ عبقريّ عوالم النّفس على هذا القدر من الاستقرار الأخلاقي وهذا القدر من الطّبع الحاد في الوقت ذاته.

ولهذا السّبب قُدّر لنيتشه أن يفكّر بوضوح بطريقة لا يوازيه فيها أحد: من يفهم علم النّفس ويمارسه كشغف، يشعر في كامل كيانه بتلك المتعة التي لا نجدها إلّا فيما هو مثالي وكامل. نتذوّق عنده ذلك الصّدق وتلك النّزاهة كما لو كانت موسيقى، تلك الحقيقة، تلك الفضيلة البرجوازية (سبق وأن قلتُ هذه الكلمة)، والتي في العادة لا نعتبرها بحيادية سوى على كونها عاملا ضروريا لحياة الرّوح.

إن الإثارات الرّائعة، والتّصعيد المُتناقض المتواجد في حبّه للحقيقة يشبه شرودًا، هروبا مبدعا للفكر، متنقّلا مع حركات العاصفة من إيقاعٍ بطيء ذكوري "أدانتي" إلى إيقاع "مايستوزو" رائع -مُجدّدًا ذاته باستمرار، وبتعدّدية صوتية مذهلة. يتحوّل الوضوح هنا إلى سحر. هذا الرّجل الذي يكاد يكون كفيفا، والذي يتلمّس الأشياء أمامه بشقّ الأنفس، الذي يعيش في الظّلام مثل البومة، كان لديه فيما يخصّ عوالم النّفس، نظرةَ صقرٍ، تلك النّظرة التي في غضون

ثانيةٍ، مثل طيرٍ جارح تنقضّ من أعالي السّماء السّرمدية لفكره، على الأثرِ الأكثر دقّة، وعلى الفروق الأكثر غموضًا والأقل استقرارًا، بثقةٍ لا تُخطِئ. أمام هذا الخبير الذي لا يضاهى، لا يمكن الاختفاء أو التّواري: عينه، مثل أشعّة سينية، تخترق اللّباس والشّعر والجلد واللّحم، لتصل إلى أعماق كلّ مشكلة.

وبما أنّ جميع أعصابه تتجاوب مع ضغط الجوّ على طريقة جهازٍ للدّقة، ففكره، المزوّد بأعصابٍ بذات القدر من الحساسية والدّقة، يسجّل بالتّفاعل الدّقيق نفسه أدنى تغيّر في المجال الأخلاقي مهما كان طفيفا. لكن سيكولوجية نيتشه لا تأتي على الإطلاق من ذكائه القاسي والواضح وضوح الماس، بل هي على العكس من ذلك جوهرية في جسده، وتنبع من هذه الحساسية الرّائعة تجاه القيم التي من خلالها يتذوّق ويشتمّ كلّ ما ليس طازجا وصافيا في الأعمال البشرية، كما لو أنّها كانت حاسّةً ووظيفة طبيعية ("عبقريّتي تكمن في فتحات أنفي").

لا يُعتَبر "الولاء الشّديد تجاه الجميع" بالنّسبة له عقيدةً أخلاقية، بل هو شرط أساسيّ تمامًا، وابتدائيّ، لا غنى للوجود عنه: "أموت عندما أكون في بيئة قذرة". يضايقه كلّ من غياب الوضوح، والقذارة الأخلاقية ويغضبانه، تماما كما تفعل الغيوم الكثيفة ذلك بأعصابه،

والأكلات الثّقيلة الدّهنية وغير المطهية جيدًا بمعدته: يتفاعل جسديا قبل أن يتفاعل روحيا: "لديّ تهيج خارقٌ لغريزةِ النّقاء، بطريقة تجعلني أشعر من النّاحية الفسيولوجية قربَ أو أعماق أحشاءِ كلّ روح".

يشتمّ بثقة كبيرة كلّ ما أفسدته الأَخْلَقَة، وبخور الكنائس، والكذب الزّائف المصطنع، والخطاب الوطني، أو أيّ مخدّر للضّمير؛ لديه حاسّة شمّ حادّة مضاعفة تلتقط كلّ ما هو متعفّن، فاسد، مضرّ، وتمكّنه من الامساك بنفحة الفقر الفكري المتواجدة في الرّوح؛ الوضوح إذن، النّقاء، النّظافة هي لفكره شرط وجوديّ ضروري كما هو ضروري لجسده (وقد أشرت إلى ذلك سابقًا) هواءً نقي ذو حدودِ شفّافة: هنا، السّيكولوجية هي بالفعل، كما يشترطه هو، "تفسيرٌ للجسد"، امتدادٌ لطبعٍ عصبي في المجال الدّماغي. يبدو جميع علماء النّفس الآخرين، مقارنة بهذا الإحساس التّنبؤيّ لنيتشه، مُضجرين وفِظاظا.

حتّى "ستاندال"، والذي كان موهوبًا بأعصابٍ بمثل هذه الحساسية، لا يمكن مقارنته به، لأنّ ما ينقصه هو الإصرار الشّغوف، وقوّة الاندفاع: فهو يكتفي بتدوين ملحوظاته بتراخٍ، بينما يندفع نيتشه بكلّ حماسةِ كيانه على أدنى معرفة، مثلما ينقضّ الطّير الجارح على فريسته من

علوّه اللّامتناهي على أصغر الفرائس. وحده دوستويفسكي يمتلك طبعا بهذا الوضوح (وكان ذلك أيضًا كنتيجة لتوتّر عظيم، ولحساسية مرضية مؤلمة)؛ لكنّ مستوى دوستويفسكي بدوره، أدنى من مستوى نيتشه عندما يتعلّق الأمر بالصّدق. فبإمكانه أن يكون غير عادل، وأن يبالغ وسط تحرّيه، بينما لا يضحّي نيتشه، في أوّج انتشائه، بإنشٍ واحدٍ من ولائه.

ولهذا السّبب ربّما لم يوجد أيّ شخص حضّره القَدَر بالطّبيعة ليكون عالما نفسيا بالفطرة مثله، ولم يُحضّر عقلٌ أبدا كذلك ليكون مقياس ضغط الرّوح الجوّي مثل عقله؛ لم يكن قبله لدراسةِ القيم جهازًا بمثل تلك الدّقة، والرّوعة السّامية.

لكن لا يكفي أن يكون تحت تصرّف علم النّفس المثالي أدقّ المشارط وأشدّها حدّة، أو أداةَ الرّوح الأفضل، يتعيّن على يدِ العالم النّفساني أيضًا أن تكون من فولاذ، من معدنٍ مرن وصلب؛ لا يجب أن ترتجف، ولا أن تتردّد أثناء العمليات، لأنّ الموهبة لم تستنفذ بعد علم النّفس، فهو وقبل كلّ شيء مسألة طبع، هو علمٌ يشترط الشّجاعة "للتّفكير في كلّ ما يعرفه المرء"، هو، كما هو الحال في الوضع المثالي، كما هو عند نيتشه، مَلَكَة للمعرفة تُضاف إليها قوّة إرادةِ المعرفة الذّكورية والبدائية.

يجب على عالم النّفس الحقيقي أن "يرغب" حيثما "استطاع"؛ لا يتجاهل، أو يفكّر بعيدا عن الشّيء بدافعٍ من التّساهل العاطفي، أو بسبب حياء أو خوف شخصيّيْن؛ لا يجب أن يسمح لنفسه أن يغفل بسبب اعتباراتٍ أخرى، تردّد أو عواطف. يجب ألّا تكون هناك روح للمصالحة عند هؤلاء المفكّرين المخلصين والأوصياء "الذين تعتبر اليقظة واجبهم"، ولا حسن النّية والخجل، أو التّعاطف؛ يجب ألّا يكون هنالك ولا واحدة من نقاط الضّعف هذه (أو الفضائل) التي يتمتّع بها البرجوازي، الرّجل العادي.

لا يُسمَح لهؤلاء المحاربين، غزاة الرّوح، أن يتركوا حقيقةً أمسكوا بها من خلال دورياتهم الجريئة تهرب من قبضتهم طواعيةً. في مجال المعرفة "لا يعدّ العمى ذنبًا، بل جبنًا"، وتعدّ حسن النّية جُرْمًا، لأنّ ذلك الذي يخاف من الحياء، أو يخشى أن يسبّب الأذى، ذلك الذي يخشى سماعَ صراخ الذين ينتزع الأقنعة من وجوههم، وأن يرى بشاعةَ العري، هو لن يكتشف أبدًا السِّرَ الأسمى.

أيّ حقيقةٍ لا تبلغ الذّروة، أيّ حقيقة ليست مُطْلَقة، لا قيمةَ إيتيقيّة لها. ومن هنا تأتي قسوة نيتشه على كل أولئك الذين، بدافعٍ من الكسل أو الجبن الفكري، يتجاهلون واجبَ العزم المقدّس؛ من هنا جاء غضبه على "كانت"، لأنّه أعادَ إدخال مفهوم الألوهية في نظامه عبر بابٍ

سري؛ ومن هنا أيضا كراهيته لكلّ الذين يغمضون عيونهم في الفلسفة أو يشيحون بنظرهم، وكرهه "لشيطان أو جنّ الظّلام"، الذي يغطّي أو يمسح المعرفة الأسمى بكلّ جبن.

لا وجود لحقيقة يتمّ الحصول عليها عن طريق الإطراء والمدح، ولا وجود لأسرار تمّ الحصول عليها من خلال الثّرثرة المألوفة والسّاحرة: فقط عن طريق العنف، والقوّة، والعناد يمكن انتزاع أثمن ما تملك الطّبيعة؛ وفقط بفضل الوحشيةِ يمكن لـ "فظاعة وجلالة الشّروط اللّانهائية" أن تتأكّد في أخلاق "أسلوبٍ عظيم". يتطلّب كلّ ما هو خفيّ أيادٍ قويّة قاسية، وعنادًا كبيرًا: دون صدق، لا وجود للمعرفة؛ ودون عزم، لا وجود للصّدق، لا وجود لـ"ضميرٍ للرّوح". "حين ينتهي صدقي، أصبح أعمى، وحيث أريد أن أعرف، أريد أيضا أن أكون صادقا، بمعنى قاسيا، صارما، غير متساهل، صلبا، لا يرحم".

لم يتلقّ عالم النّفس الذي بداخل نيتشه كَهِبَةٍ من القَدَر هذه الرّاديكالية، هذه القسوة وغياب الشّفقة، مثلما تلقّى نظرةَ الصّقر: بل اشتراها، ودفع ثمنها حياتَه، نومَه، وراحتَه. بكونه في الأصل صاحبَ طبع لطيف، طيّب، اجتماعي، ومبتهجٍ إلى حد ما، مهذّب، يجد في البدء نيتشه نفسه مجبرًا، من خلال لجوئه إلى قوّة عزيمة خيالية، على أن يجعلَ نفسه غير قابلٍ للتّأثر، وعديمَ الشّفقة عندما يتعلّق الأمر بعواطفه:

فقد أمضى بالفعل نصف حياته في النّيران. بغاية فهم كلّ الطّابع الأليم لهذه العملية الفكرية، يجب النّظر معمّقا بكيانه.

لأنّه، ومع "ضعفه"، طيبته ولطفه، يحرق نيتشه كلّ الأشياء الإنسانية التي تربطه بالبشر؛ يفقد صداقاته، علاقاته، روابطه، لتصبح تدريجيا آخر قطعة من حياته ملتهبة، جعلها لهبه الخاصّ حمراءَ، حتّى أنّ أيادي جميع من يريد لمسه تحترق. كما هو الحال مع الحجر الجهنّمي، نقوم بكيٍّ جرحٍ لتجنّب التّعفن، يكوي نيتشه إحساسه ليحافظ عليه نقيّا وصادقا، يعالج نفسه بنفسه، دون رأفة أو اعتبار، بالحديد الأحمر يكوي إرادته التي تتوق لصدقٍ خالص: ولهذه السّبب وحدتُه أيضًا هي نتاجُ الإكراه.

ولكنّه بصفته متشدّدا حقيقيًا، يضحّي بكلّ ما يحب، بما في ذلك "ريتشارد فاغنر" الذي كانت تمثّل صداقتُه سالفا اللّقاءَ الأكثر قدسية في حياته، وبذلك يصنع من نفسه شخصا فقيرا، وحيدا ومكروها، يفضّل التّحوّل إلى ناسك بائس ليتأكّد من بقائه "حقيقيّا"، وليتمكّن من اتمام رسالة نزاهته حتّى النهاية. وكما هو الحال بالنّسبة لكلّ من يتملّكهم الشّيطان، شغفه -وهو شغف النّزاهة بالنّسبة له – يصبح شيئا فشيئا مهيمنا، هوسا وحيدا، ويحرق داخل ألسنة لهبه جميعَ فضاءات حياته الأخرى؛ وكباقي الذين يتملّكهم الشّيطان، لا يعرف

في الأخير شيئًا غير شغفه. ولهذا السّبب، علينا أن نتخلّى أخيرًا عن نوع الأسئلة النّموذجية المدرسية، مثل: "ما الذي أراده نيتشه؟ كيف كان نيتشه يفكّر؟ إلى أيّ مدرسةٍ، واتّجاه فلسفي كان يميل؟". لم يكن نيتشه يرغب في شيء: يوجد عنده ببساطة شغفٌ مبالغ فيه للحقيقة- شغف يتمتّع بذاته. شغف لا توجد من ورائه أيّ غاية؛ لا يهدف نيتشه إلى تحسين العالم أو تثقيفه، ولا لتهدئته أو لتهدئة نفسه: سكره الفكري هو غاية في حدّ ذاته، متعة تكفي ذاتها بذاتها، شخصية وفردية، أنانية بالكامل وأساسية، مثلها مثل كلّ شغف شيطاني.

في هذا العطاء الهائل للقوى، لا يتعلّق الأمر أبدًا بعقيدة (فقد تجاوز منذ مدّة الصّبيانية النّبيلة، وبدايات الدّغماتية)، وبدرجة أكبر، لا يتعلّق الأمر بديانة ("لا يوجد بداخلي أيُّ مُؤسِّس ديانة. الدّيانات من شؤون الشّعب"). يُمارس نيتشه الفلسفة كفن، وكنتيجة لذلك، وبصفته فنّانًا حقيقيًا، هو لا يبحث عن النّتائج، عن أشياء نهائية ببرود، بل يبحث ببساطة عن أسلوب، "أسلوب الأخلاق العظيم"، ويحسّ تمامًا كونه فنّانًا بكلّ رعشات الالهام المفاجئ (ويتلذّذ بها).

لهذا السّبب ربّما، بل بالتّأكيد لهذا بسببه، نحن نخطئ بمنحنا اسمَ الفيلسوف لنيتشه، بمعنى صديق "صوفيا"، الحكمة. إذ يفتقد الإنسانُ الشّغوف الحكمة دائما، ولم يكن أيّ شيء أكثر غرابة عن

"نيتشه" كما كان مفهوم بلوغ هدف الفلاسفة المعهود، والذي هو توازنٌ في العواطف، بلوغ الاستراحة والاطمئنان، وحكمة "بنيّة"، راضية عن نفسها، النّقطة الصّلبة لقناعةٍ دائمةٍ نهائية. هو "يُنفِق ويَستهلِك" قناعات متتالية؛ ويرفض ما اكتسبه، ولهذا السّبب، الأحرى تسميته "باحثًا عن الحقيقة، صديقا لها"، هو الشّغوف المحموم بـ "أليثيا"، الحقيقة، بهذه الإلهة المغرية العذراء القاسية، والتي، مثل أرتميس، تجذب دائما عشّاقها في صيدٍ أبدي، ليبقى الوصول إليها رغم كلّ شيء مستحيلًا خلف ستائرها الممزّقة.

ليست الحقيقةُ كما يفهمها نيتشه شكلا صلبا ومتبلورا من الحقيقة، بل بالضّبط الإرادة الملتهبة والحارقة لأنّ يكون حقيقيا، وأن يظلّ كذلك، ليست النّتيجة النّهائية لمعادلة، بل هي ارتقاء شيطانيّ لا ينتهي إلى قوّة أعلى، وتوتّر احساسه الشّخصي بالحياة، هي تمجيد الحياة بمعنى الامتلاء الشّمولي: لا يريد نيتشه وفي أيّ حال من الأحوال أن يكون سعيدا، بل أن يكون حقيقيّا. لا يسعى وراء الرّاحة (مثلما يفعل تسعة أعشار الفلاسفة)، بل، بصفته عبدًا وخادما للشّيطان، يبحث عن أفضل ما يوجد في كلّ العواطف والحركات.

لكن، يتطلّب كلّ صراع من أجل بلوغ ما يستحيل بلوغه طبعًا بطوليا، وكلّ طبع بطولي ينتهي بالضّرورة، بدوره، إلى نتيجته الأكثر قدسية،

ألا وهي السّقوط.

كانت المُطالبة بالنّزاهة الحازمة والخطيرة التي وصلت حدّ التّشدّد، ستقود نيتشه حتما إلى صراعٍ مع العالم، صراعٍ دموي قاتلٍ وانتحاري. ترفض الطّبيعة الّتي يكوّنها ألف عنصر بالضّرورة كلّ تشدّد أحاديّ الجانب. ففي الحقيقة تستند كلّ حياة على المصالحة، التّوفيق، وعلى التّساهل (هذا ما تعرّف عليه جوته مبكّرا، وطبّقه، هو الذي كان في طبيعته يعكس بحكمة جوهر الطبيعة). حالها كحال البشر، تحتاج لتحافظ على توازنها إلى حالاتِ وَسَطٍ، إلى تنازلات ومفاهمات ومعاهدات.

والشّخص الذي يدّعي -مُعاديا الطّبيعة تمامًا وشبيهًا مطلق بالإنسانية- أنّه لا يريد المشاركةَ في السّطحية، وفي التّنازلات والمصالحات في هذا العالم، ذاك الذي يريد أن ينتزع نفسَه بالعنف من شبكات الرّوابط والاتّفاقيات والأعراف التي نسجتها القرون، يدخل رغمًا عنه في معارضة مميتة مع المجتمع ومع الطّبيعة. كلّما ادّعى فرد بحماس "أنّه يتطلّع إلى نقاء مطلق"، كلّما زاد كمّ العدائية التي يظهرها له الزّمن. فإمّا أن يصرّ مثل "هولدرلين" على رغبته في منح شكلٍ شعريٍّ بحت لحياةٍ هي مبتذلة أساسًا، وإمّا يدّعي، مثل نيتشه، أنّه يخترق التّقلبات الدّنيوية اللّامتناهية، وفي كلتا الحالتين،

هذه الرّغبةُ التي تبقى بطوليةً مجرّدةً من الحكمة، تشكّل تمرّدًا ضدّ الأعراف والقواعد، وتدفع بالجريء نحو عزلة لا رجعة منها، في حربٍ رائعة، لكنّها بلا أمل.

ما يطلق عليه نيتشه تسمية "العقلية المأساوية"، والقرار بالمضيّ قدما إلى آخر الطّريق مع أيّ شعور، ينتقل من الرّوح إلى الحقيقة الحيّة، ويخلق المأساة. والشّخص الذي يريد أن يفرض على الحياة ولو قانونًا واحدًا، ذاك الذي يريد أن يُبرز شغفا واحدا وسط فوضى الأحاسيس، شغفه هو وحده، يصبح وحيدًا، وباعتباره وحيدًا، فهو يُدمَّر: يكون مجنونًا في أحلامه لو كان يتصرّف في غيابٍ تامّ عن الوعي، لكنّه بطل، لو عرف الخطر، ورغم ذلك، تحدّاه.

نيتشه، مهما كانت درجة الشّغف في صدقه، هو من الذين يعرفون. يعرف الخطر الذي يعرّض له نفسه؛ يعرف منذ اللحظة الأولى، منذ الكتابات الأولى، أنّ فكره يحوم حول مركزٍ خَطِرٍ ومأساوي، وأنّه يحيا حياة خطرة، لكن (باعتباره بطلا للرّوح ذا طبعٍ مأساوي بالفعل) فهو لا يحبّ الحياة إلّا بسبب ذلك الخطر الذي، بالتّحديد يحطّم حياته. صرخ للفلاسفة: "شيّدوا منازلكم على حافّة الفيزوف"، ليحثّهم نحو وعيٍ أسمى بالقَدَر، ذلك أنّ "درجة الخطورة التي يعيش فيها الانسان مع نفسه" هي، بالنّسبة له، المعيار الوحيد الصّالح لقياس أيّ عظمة.

وحده الذي يقمّر ببراعة بكلّ شيء يمكنه الفوز بالأبدي؛ ووحده الذي يخاطر بحياته، بإمكانه إعطاء قيمة الأبدية لهيئته الدّنيوية المحدودة. -Fiat veritas، pereat vita-؛ لا يهمّ إن كلّف الأمر الحياة، المهمّ أن تبرز الحقيقة. الشّغف أكبرُ من الوجود، ومعنى الحياة أكبر من الحياة نفسها. يعطي نيتشه بقوّة كبيرة في حماسه لهذه الفكرة شكلا عظيما، والذي يتجاوز بكثير قَدَرَه الشّخصي: "جميعنا يفضّل خرابَ الإنسانية على خراب المعرفة".

كلّما أصبح مصيره هشّا، وكلّما اقترب من البرق المعلّق فوق رأسه في سماء الرّوح التي تزداد صفاءً أكثر فأكثر، أصبح العطش الذي ينتابه لهذا الصّراع النّهائي أكثر استفزازا، وجبريًا بشكل سعيد. قال عشية السّقوط :"أنا أعرف مصيري، يوما ما سيتعلّق باسمي ذكرى شيء خارق للعادة، أزمة كما لم توجد مثلها من قبل على وجه الأرض، ذكرى تصادم أعمق للوعي، لإرادة متّحدة ضدّ كل شيء كان حتّى ذلك الحين مقدّسا وموضوعا للعقيدة"؛

"ما كمّ الحقيقة التي بإمكان الإنسان أن يتحمّلها؟"

كان هذا التّساؤل الذي طرحه هذا المفكّر الجريء على نفسه طوال

حياته؛ ولكن من أجل تعميق هذه القدرة على المعرفة، استلزم عليه الأمر تجاوز المنطقة الآمنة ليبلغ الدّرجة التي لا يمكن للإنسان عندها أن يتحمّلها، والتي تصبح فيها آخر معرفةٍ قاتلة، ويصبح النّور شديدَ القرب حتّى يصيبك بالعمى. وبالتّحديد، الخطوات الأخيرة هذه هي التي لا تُنْسى، وهي الأقوى في مأساة قَدَرِه: لم يكن أبدا عقله واضحا لهذا الحدّ، أو روحه شغوفًا، ولم تحتوِ كلمته هذا المقدار من السّعادة والموسيقى إلّا عندما رمى بنفسه وسطَ المعرفة، وبإرادته الحرّة، من أعالي الحياة إلى هاوية العدم.

يموت الثّعبانِ الذي يعجز عن الانسلاخ من جلده.
وبالمثل، فعندما تُمنع الأرواح من تغيير آرائها، تتوقّف
عن كونها أرواحًا.

تغييرات للوصول إلى الذّات

لرجال النّظام، بغض النّظر عن كونهم عادة ما يصابون بالعمى أمام كلّ ما هو متفرّد، غريزةٌ لا تخطئ، تمكّنهم من اكتشاف ما هو معادٍ لهم؛ وقبل ظهور نيتشه بصفته اللّاأخلاقي، والحارق لحدائق أخلاقهم المسيَّجة بعناية، شعروا في شخصه بصفة العدو: وعرف حدسهم عنه أكثر ممّا كان يعرف هو عن نفسه. كان يزعجهم (ولم يتقن أحدٌ مثله فنّ اختلاق الأعداء اللّطيف)، باعتباره شخصا مريبا، دخيلا أبديا في كلّ الجهات، مثل هجين فلاسفة، وفقيه لغة، وثوري، وفنّان وأديب وموسيقي؛ منذ السّاعات الأولى كرهه أصحاب المهن لأنّه يتجاوز الحدود.

وبالكاد نشر عالم اللّغة مؤلّفه الأوّل حتّى أدانه علنًا أستاذُ فقه اللغة، "فيلاموفيتز" (وقد بقي كذلك طيلة نصف قرن، بينما كان خصمه يتقدّم بعظمة نحو الخلود)، أمامَ جميع زملائه، باعتباره ذاك

الذي تجرّأ على تجاوز الحدود المهنية. حذر أتباع "فاغنر" بدورهم (وكم كانوا على صواب!) من المادح الشّغوف، بمثل حذر الفلاسفة من أعماله بخصوص المعرفة: حتّى قبل أن يخرج من شرنقة عالم اللّغة التي كانت تلفّه، وحتىّ قبل أن تصبح له أجنحة، وقف أهل الاختصاص ضدّ نيتشه. وحده العبقري، العارف بالتّغيرات، وحده "ريتشارد فاغنر" أحبّ في هذه الرّوح التي كانت بصدد التّكوين، عدوّه المستقبلي.

لكن اشتمّ وشعر الآخرون على الفور بالخطر الكامن في طريقته الجريئة في أخذ الأشياء إلى أبعد حدّ ممكن: شعروا في ذلك بوجود شخص غير متأكّد، شخص لن يبقى وفيّا لقناعاته، في اندفاع الحريّة التي لا تُكبَح، والتي يمارسها أكثر المتحرّرين ضدّ كلّ الصّعاب، رغم الجميع، ورغم كلّ شيء، وكنتيجة لذلك رغم نفسه أيضا. وحتّى الآن، بعد أن أصبح مقامه يخيفهم ويدفعهم للتّحفظ، يرغب الاختصاصيون من جديد في حبس "الأمير الخارج عن القانون" داخل نظام، عقيدة، ديانة، أو رسالة.

يودّون لو أنّه كان، مثلهم، مربوطًا بقناعات، محاطًا بسورٍ لمفهوم الكون-وكان ذلك بالتّحديد أكثر شيء يخشاه. أرادوا أن يفرضوا على هذا الرّجل الأعزل موقفًا نهائيًا، غير تناقضي، وأن يثبّتوا هذا

الرّحالة (هو الذي غزا عالم الرّوح اللامتناهي) في مسكن، بينما لم يكن يمتلك أبدا واحداً، ولم يكن يرغب به.

لكن يستحيل وضع نيتشه في قفص عقيدة؛ ولا يمكن تسميره في قناعة (لم يُحاوَل أبدا من خلال هذه الصّفحات، على طريقة معلّم المدرسة، من مأساةٍ روحية مؤثّرة صُنع "نظرية" فاترة عن "المعرفة")، لأنّ هذا الشّغوف النّسبي بكلّ القيم لم يرتبط أبدًا بطريقة دائمة بأيّ كلمة قالها، أو بأيّ قناعة لفكره، أو شغف لروحه، ولم يعتبر نفسه أبدا مُلزَما بأيّ منها.

"يستخدم الفيلسوف القناعات ويستهلكها"

هكذا يردّ نيتشه بتكبّر على العقول الثّابتة في مكانها، والتي تتباهى بفخر بطبعها وبقناعاتها. يعدّ كلّ رأي من آرائه مجرّد انتقال؛ لكن حتّى أناه، جلده، جسده، تركيبته الفكرية أشياءً لم تكن أبدًا بنظره، سوى تعدّدية، "تركيبة اجتماعية لاحتواء العديد من الأرواح": وقد نطق حرفياً، ذات يوم، بأجرأ الكلمات على الاطلاق:

"من المضر أن يرتبط المفكّر بشخصٍ واحد. عندما تجد نفسك، عليك أن تحاول أن تفقد نفسك من وقتٍ لآخر - لتجد نفسك من جديد".

جوهره عبارة عن تحوّل مستمر، معرفةُ الذّات من خلال فقدان الذّات، بمعنى أنّه عبارة عن صيرورةٍ أبدية لا كيانًا جامد أو راحة أبديّة: ولذلك ضرورة الحياة الوحيدة التي نجدها في جميع كتاباته هي "أُغْدُ مَا أَنْتَ عَلَيْه".

وهكذا أيضا، قال "جوته" ساخرا أنّه كان لا يزال متواجدا في مدينة "يينا" عندما كانوا يبحثون عنه في "فايمار"؛ يتواجد التّشبيه المفضّل لنيتشه، والمتعلّق بجلد الثّعبان الذي يُسلَخ في رسالةٍ لـ"جوته" يعود عمرها لمئة سنة؛ لكن كم هو متناقض تطوّر "جوته" الحكيم وتحوّل نيتشه البركاني!

الحقيقة هي أنّ "جوته" يوسّع حياته حول مركز ثابت، مثل الشّجرة التي تضيف مع كلّ سنة حلقةً جديدة لجذعها الدّاخلي الخفي؛ وبينما يتخلّص من لحائه الخارجي، يصبح أكثر صلابة، قوّة، وطولا، وبإمكانه أن يرى دائما لأبعد. يرجع فضل تطوّره للصّبر، لقدرةٍ ثابتة قويّة على الامتصاص، باستطاعتها في الوقت نفسه تعزيز النّمو، وتقوية مقاومة الدّفاع عن الذّات، بينما لا يعرف "نيتشه" في إرادته سوى العنف والفوضى الشّديدة.

يتوسّع "جوته" دون التّضحية بذاته؛ ولا يحتاج أبدًا إلى الانسحاب من أجل الارتقاء؛ أمّا نيتشه رجل التّحولات، وعلى العكس من ذلك، فهو

مُجبَرٌ دائمًا على تدمير نفسه ليتمكّن من إعادة بناء نفسه بالكامل. تَنْتُجُ كلّ مكاسبه الرّوحية واكتشافاته الجديدة عن تمزّقٍ قاتلٍ للذّات، وعن معتقدات فُقِدت، عن تحلّل، ولكي يصعد إلى أعلى، مجبر هو على التّخلي عن جزءٍ من ذاته (بينما لا يضحّي "جوته" بأيّ شيء، ويكتفي بالتّغيير الكيماوي لعناصره وتقطيرها).

على نيتشه أن يمرّ بالألم والتّمزق كي يبلغ مشهدا أعلى وأكثر حريّة:

"القطيعة مع كلّ رابط فردي صعبة، لكن ينبت لي مكان كلّ رابط جناح".

لكونه من طبيعة شيطانية في الأساس، فهو لا يعرف إلّا أكثر التّحولات وحشية وعنفا، والتي تحدث عن طريق الاحتراق: مثلما يتوجّب على طائر الفينيق أن يمرّ بكامل جسده عبر النّار المدمّرة ليولَد من جديد، وهو يغنّي، من رماده، بألوان جديدة واندفاع جديد، على خيط الرّوح، بالمعنى الذي يمطيه له نيتشه، أن يمرّ بمحرقة التّناقضات التي تلتهم ذاته، كي ترتفع الرّوح باستمرار، مُجدَّدة ومُحرَّرة من كلّ القناعات السّابقة.

في نظرته المُتغيّرة عن العالم، لا يبقى أيّ شيء ثابتا، ولا شيء يقاوم التّناقض: ولهذا، فمراحله لا تتتالى بأخويّة، بل بطريقة عدائية. يظلّ دائما يسير على طريق دمشق، ولا يغيّر عقيدته أو إحساسه مرّة واحدة،

بل عددًا لا يحصى من المرّات، إذ لا يتغلغل كلّ عنصر روحي جديد عنده فقط في الرّوح، بل في أحشائه: تتحوّل عنده المعرفة الأخلاقية والثّقافية الفكرية مُغيّرةً دورتَه الدّموية، وأيضا شعوره وفكره. مثل مقامر متهوّر، (مثلما يشترطه "هولدرلين" على نفسه ذات يوم) فإنّ نيتشه "يكشف كامل روحه لقوّة الحقيقة المدمّرة"، ومنذ البدء، تتخّذ التّجربة والأحاسيس التي يشعر بها شكلَ ثوراتٍ بركانية عنيفة تمامًا. عندما يقرأ، وهو لا يزال ذلك الطّالب الشّاب في ليبزيغ "العالم إرادةً وفكرة- Die Welt als Wille und Vorstellung"، لا يمكنه النّوم طيلة عشرة أيّام، يضطرب كلّ كيانه في إعصارٍ؛ وتنهار العقيدة التي كان يرتكز عليها بصوت مدوٍّ؛ وعندما يخرج عقله المُبهَر تدريجياً من هذا الدّوار ليستعيد رباطة جأشه، فما يمتثل أمامه هو فلسفةٌ متغيّرة بالكامل، ومفهومٌ جديد عن الحياة.

وكذلك تحوّل لقاؤه مع "ريتشارد فاغنر" إلى حب شغفي وَسّعَ نطاقَ حساسيته إلى ما لا نهاية. عندما عاد من "تريبشين" إلى "بازل"، اتخذّت حياته منحى جديدًا: بين عشية وضحاها، مات عالم اللّغة بداخله، وترك منظورُ الماضي والتّاريخ مكانَه لمنظور المستقبل. وبالتّحديد لأنّ روحه كلّها كانت مليئة بهذا الحبّ الرّوحي المستعر، فتحت فيه بعدها القطيعة مع "فاغنر" جُرحًا غائرًا كاد يُرديه قتيلا،

كان جرحًا دائم النّزيف والتّعفن، لن يُغلَق أبدًا، ولن يلتئم تمامًا. دائمًا، وكما بفعل ضربة زلزال، مع كلّ هزّة من الاهتزازات الرّوحية، ينهار صرح قناعاته بالكامل، ويضطرّ نيتشه لإعادة بناء نفسه من الصّفر.

لا شيء ينمو بداخله بهدوء، بصمت، بطريقة عضوية، مثل أشياءِ الطّبيعة؛ ولا يمتدّ كيانه الدّاخلي أبدا أو يتطور من خلال عملية سريّة موسّمًا قاعدته: فكلّ شيءٍ يضربه – بما في ذلك أفكاره الشّخصية– "مثل الصّواعق"؛ يتوجّب دائمًا عليه أن يحطّم كونًا بداخله، لكي يبني كونه من جديد. قوّة الفكرة المتفجّرة عند نيتشه لا تُضاهى؛ يكتب ذات يوم : "أودّ فعلا لو خُلّصتُ من فيض الإحساس الذي تَحْمِلُه إنتاجاتٌ كهذه، وقد راودتني فكرةُ كوني سأموت فجأةً بسبب شيءٍ من هذا القبيل".

وبالفعل، يوجد دائما شيء ما يموت بداخله أثناءَ تجديداته الرّوحية؛ باستمرار، في نسيجه الدّاخلي، هنالك شيءٌ ممَزّق، كما لو أنّ خنجرًا فولاذيًا غرس به قاطعًا كلّ علاقاته السّابقة. يُحرَق دائما البيت الرّوحي، ويتفحّم لدرجةٍ يستحيل فيها التّعرف عليه، بألسنةِ لهبِ إلهام جديد.

عند نيتشه، توجد في كلّ واحدة من تحوّلاته، تشنّجات

الموت، وتشنّجات الولادة. لم يتطوّر قطّ إنسانٌ وسط مثل هذه العذابات المروّعة، وأبدا لم يُنزِف إنسانٌ نفسه بهذا القدر خلال رحلة البحث عن الذّات.

ولهذا السّبب، ليست هذه الكتب في حقيقة الأمر سوى العلاقات السّريرية لهذه العمليات، والمنهجيات الموظّفة في هذا التّشريح الحيّ، هي فقط نوعٌ من فنّ توليد الرّوح الحرّة. "لا تتحدّث كتبي سوى عن الانتصارات التي حقّقتها على نفسي". إنّها قصّة تحوّلاته، وحبله وولاداته، وموته وإعادات بعثه، قصّة الحروب التي خاضها بلا رحمة ضدّ شخصه، عقوبات وإعدامات ألحقها بها، وفي المجمل، سيرة لكلّ الأشخاص الذين "كانهم" نيتشه، طيلة حياته الرّوحية التي دامت عشرين سنة.

ما يميّز تحوّلات نيتشه المستمرّة والمتفرّدة، هو أنّ خطّ حياته يمثّل، بمعنى ما، حركةً رجعية. فلنأخذ "جوته" (وهو دائمًا من نصادف أمامنا بما أنّه يمثّل أكثر الظّواهر البشرية رمزيةً) كأنموذج أوّلي لطبيعة عضوية تجد نفسها بشكل غامض متوافقةً مع مسار الكون؛ نرى أن أشكال تطوّره تعكس رمزيًا مراحل أعمار الحياة المختلفة. في شبابه، كان "جوته" حماسيًا كالنّار؛ وفي سنّ الرّجل، أصبح نشاطه تأمّليًا حكيمًا، ليكون في شيخوخته كلّ فكره وضوحًا: يتوافق إيقاع

روحه عضويا مع درجة حرارة دمه. فوضاه تتواجد في البداية (كما هو الحال دائما عند الانسان الشّاب)؛ بينما يتواجد تنظيمه في آخر مسيرته (كما هو الحال دائما عند الانسان الكهل)؛ يصبح مُحافظًا بعد أن كان ثوريًا، رجل علم بعد أن كان قد بدأ مع السّحر والتّنجيم، ومدبّرًا حريصًا بعد أن كان مُسرفا.

وما يفعله نيتشه عكس "جوته" تماما؛ بينما يتوق هذا الأخير إلى ارتباط كاملٍ لِكيانه، يرغب نيتشه بشدّة في تفكّكٍ أكثرَ فأكثر شغفًا: مثل كلّ الطّباع الشّيطانية، يحتدم فيه الشّعور بصورة أكبر، يصبح أقلّ صبرا، وأكثر اندفاعا، أكثر تمرّدا، أكثر فوضوية كلّما تقدّم به العمر. وسلوكه الظّاهري بالفعل في تناقض تام مع التّطور الطّبيعي المعتاد. يبدأ نيتشه بالشّيخوخة.

في سنّ الرّابعة والعشرين، بينما لا يزال رفاقه منغمسين في ألعاب الطّلاب، يؤدّون طقوس الشّرب السّعيدة رافعين أكواب الجعة الكبيرة، مستعرضين أنفسهم وهم يقلّدون خطى الإوزّ في الشّوارع، كان نيتشه قد أصبح أستاذًا حاصلا على كرسيّ فقه اللّغة في جامعة بازل الشّهيرة. أصدقاؤه الحقيقيون حينها هم علماء شيوخ شابت رؤوسهم في الخمسين أو السّتين من عمرهم، من أمثال "جاكوب بوركهارت" و"ريتشل"، بينما كان صديقه المقرّب الحميم هو أوّل فنّان عصره،

الجادّ "ريشار فاغنر".

تصنع منه شدّة عنيدة، وقسوة برونزية، وموضوعية لا تحيد عالمًا فقط، ولا تصنع منه فنّانا؛ وفي كتبه، تغلب النّبرة التّعليمية المتفوّقة للرّجل المجرّب على نبرة المبتدئ. فهو يقمع بعنف طاقاته الشّعرية، واندفاع الموسيقى: مثل أيّ مستشار في البلاط الامبراطوري الذي حجّرته السّنين، نجده مُنحنيا على مخطوطاته، يؤلّف الفهارس ويكتفي بمراجعة مؤلّفات القانون القديمة التي غطّاها الغبار.

نظرة نيتشه في بداياته موجّهةً بالكامل نحو الماضي، نحو التّاريخ، نحو الذي مات وكان؛ وتنحصر مُتع حياته في عادات شخص طالت عزوبيته؛ تختفي سعادته ويُحجب حماسه وراء قناع الأستاذية، بينما لا تفارق عيناه الكتب، ومشاكلَ الإلمام الواسع. في سنّ السّابعة والعشرين، يفتح له تأليفُ "مولد التّراجيديا" خندقًا سريًّا مبدئيا في الزّمن الحاضر: لكن لا يزال مؤلّف ذلك الكتاب يضع على شخصيّته الرّوحية قناعَ فقه اللّغة الجدّي، ولو وُجد في هذا الكتاب اندلاع أوّل للأشياء المستقبلية، بصيصٌ منبئٌ عن حبّ الحاضر، والشّغف بالفنّ، فهي أشياء تظلّ مختفية.

في سنّ الثّلاثين تقريبا، في العمر الذي يبدأ فيه الرّجل العادي حياته البرجوازية، في العمر الذي أصبح فيه "جوته" مستشارًا للدّولة،

و"كانت"، تماما مثل "شيلر" أصبح فيه أستاذًا، كان نيتشه قد رمى خلفه بالفعل بكلّ مهامه الرّسمية، وتخلّى وهو يتنفّس الصّعداء عن كرسيّ أستاذية فقه اللّغة. تلك كانت خطوته الأولى نحو ذاته الحقيقية، حركته الأولى ليدخل إلى عالمه الخاص، أوّل تحوّل داخلي له، وتعتبر هذه القطيعةُ بداياتَ الفنّان الحقيقية.

ينطلق نيتشه الحقيقي في اللّحظة التي يدخل فيها إلى الحاضر- نيتشه المأساوي، الخارج عن الزّمن، صاحب النّظرة المصوَّبة نحو المستقبل، والذي يشعر بالحنين للإنسان الجديد، الانسان الذي قد يأتي ذات يوم. في غضون ذلك، تطرأ اضطرابات لا تتوقّف، شبيهة بانفجارات الغازات المفاجئة في المناجم، تغيّرات جذرية في كيانه الأعمق – إنّه التّنقل العنيف المفاجئ من فقه اللّغة إلى الموسيقى، من الجدّية إلى النّشوة، ومن الصّبر الإيجابي إلى الرّقص.

نيتشه في السّادسة والثّلاثين من عمره "خارج"، لاأخلاقي، مشكّك، شاعرٌ وموسيقي، "شابّ بشكل أفضل" ممّا كان عليه في شبابه، متحرّر من كلّ ماضٍ ومن علمه الخاص بأكمله، محَرَّر بالفعل من الحاضر، وبالفعل رفيق للإنسان في العالم الآخر، الانسان المستقبلي. وكنتيجة لذلك، وبدل أن تجعل سنوات التّطور، كما هو الحال مع الفنان العادي، حياته تستقر بترسيخها أكثر فأكثر وجعلها أكثر جدية

ونظامًا، كان كلّ عملها هو تحريره بشغف من كلّ الرّوابط والعلاقات. وتيرة هذا الرّجوع إلى الشّباب وحشيةٌ لا مثيل لها.

يتمتّع كلّ من لغة نيتشه، وأفكاره، وكينونته، وهو بسنّ الأربعين بعدد أكبر من كرّيات الدّم الحمراء، والنّضارة في اللّون، والتّهور والجرأة، والشّغف والموسيقى منه عندما كان بسنّ السّابعة عشرة، ويمضي الوحيدُ القادم من "سيلس-ماريا" عبر عمله وهو أخفّ، مجنّح، وراقص بشكل أكبر من الأستاذ القديم البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا والذي كان قد شاخ قبل الأوان.

كنتيجة لذلك، يحتدّ عند نيتشه الإحساسُ بالحياة بدل أن يهدأ: وتتسارع تحوّلاته أكثر فأكثر، لتتحرّر أكثر وتصبح مجنّحة، متنوّعة، متوتّرة، شرّيرة، لئيمة، وساخرة، لم يعد يجد في أيّ مكان نقطة توقّف لعقله الدّائم الحركة. بالكاد يستقرّ في مكان ما حتّى "يتشقّق جلده ويتصدّع"، في النّهاية، يستحيل حتّى على حياته تتبّع تحوّلات روحه والتّغييرات التي تكتسب تدريجيا إيقاعا سينيماتوغرافيا تهتزّ فيه الصّورة وتتحرّك باستمرار.

بالتّحديد، في كلّ مرّة يلتقونه، تزداد دهشة من ظنّوا معرفته عن كثب، أصدقاء الفترات السّابقة من حياته، الذّين انغمس جلّهم في علومهم، وآرائهم، وأنظمتهم. يكتشفون برعب في شخصه الفكري التي يزداد شبابا، سماتٍ جديدة لا علاقة لها بأيّ شيء سابق؛ وهو شخصيا،

دائمًا في طور التّحول، لديه الانطباع بأنّه يجد نفسه أمام شبح عندما يسمع أحدهم ينطق بأحد عناوين كتبه، أو عندما يظنّونه الأستاذ "فريدريك نيتشه، من بازل"، عالم اللّغة، ذلك الرّجل الذي شاخ قبل الأوان في اطّلاعه الواسع الذي -وهو بالكاد يتذكّر ذلك- "كانَهُ" ذات يوم، منذ عشرين سنة مضت. ربّما لم يرمِ أيٌّ كان ماضيه بعيدًا هكذا بالقدر نفسه من الحزم والصّرامة كما فعل نيتشه، باستبعاده لكلّ ما بقي من بقايا ومن أحاسيس وقت مضى: ومن هنا أيضا تأتي العزلة الرّهيبة لسنواته الأخيرة.

فقد قطع كلّ صِلاته بالماضي؛ وإيقاع سنواته الأخيرة، وتحوّلاته الأخيرة شديد السّرعة والالتهاب لا يسمح له بالارتباط بأشياء جديدة. هو مجرّد عابرٍ، بسرعة فائقة، بجانب البشر، وكلّ الظّواهر؛ وكلّما اقترب، أو بدا أنّه يقترب من ذاته، كلّما أصبحت رغبته في الهروب من ذاته حارقة. في كلّ مرّة أصبحت تحوّلات كيانه أكثر جذرية، كلّما صارت قفزاته من الأبيض إلى الأسود أعنف، وتحويلاته للرّوابط الدّاخلية كهربائيةً: هو يستهلك نفسه من خلال التهام نفسه باستمرار، وطريقه عبارة عن دربٍ وحيدٍ من اللّهب.

لكن، ومع تسارع وتيرة تحوّلاته، أصبحت أيضا أشدّ عنفًا وألمًا. تمثّلت أولى "تجريدات" نيتشه ببساطة في التّخلص من معتقداته عندما

كان صبيًا صغيرًا أو شابًا، من الآراء الجاهزة التي تعلّمها، أو تلك التي فُرِضَت عليه من قِبل المدرسة؛ رمى بها خلفه بسهولة، مثل جلد ثعبان متيبّس.

لكن تعيّن عليه كلّما زاد من قوّته الفكرية أن يغرس الخنجر بشكل أعمق في طبقاته الحميمة من مادّته الدّاخلية، وفي كلّ مرّة غُرِسَت قناعاته في جسده، مشحونةً بالتّدفق وممتلئة بالدّم، صارت مُشكّلة من البلازما الخاصّة به، وزادت حاجته للمزيد من العنف الوحشي، لسفك الدّماء وللحزم الذي لا هوادة فيه: هذا هنا عمل "جلّاد الذّات"، عمل "شيلوك"، جُرحٌ في جسده. لتصل أخيرا عملية تعرية الذّات إلى المنطقة الأكثر حميمية من الإحساس، وتصبح العمليّات خطيرة هناك، خاصّة منها بَتْرُ عُقْدَةِ "فاغنر" التي تعدّ عملية جراحية بالغة الخطورة، تكاد تكون قاتلة في أعمق جزءٍ من جسده، بالقرب جدّا من خياطة التماس القلب، تكاد تكون انتحارا، وفي عنفه الوحشي والمفاجئ، يعدّ الأمر أيضا جريمةً عاطفية، لأنّ غريزته الوحشية التي تدفعه للحقيقة تغتصب وتخنق في لحظة الاقتراب الحميم، لحظة عناق الحب، أكثرَ شخصٍ يحبّه، والأقرب إليه.

لكنّه يشعر بحالٍ أفضل كلّما زاد العنف، وكلّما كلّف نيتشه "انتصارً على نفسه" قَدْرًا أكبر من الدّم والألم والوحشية، كلّما تلذّذ طموحُه من هذه التّجربة التي يُخضِع لها قدرته الخاصّة على الإرادة؛ بصفته

مُحقّقا في محاكم التّفتيش ، عنيدًا لنفسه، يسبر كلّ قناعة من قناعاته الخاصّة ويشعر بسعادة اسبانية كئيبة، وبشهوانية وحشية عندما يتأمّل في عديد الأتودا في أفكاره المعترف بها على أنّها هرطقة.

تدريجيًا عند نيتشه، تصبح غريزة تدمير الذّات شغفًا فكريًا:

"أحِسُّ متعةَ التّدمير إلى درجةٍ منسجمةٍ مع قُدرَةِ التّدمير لدي".

من التّحول البسيط للذّات تنشأ الرّغبة في نقض الذّات، وفي كونه خَصْمَ ذاتِه: تتعارض مقاطع كاملة من كتبه مع مقاطع أخرى بعنف، يضع هذا المرتد المتحمّس لقناعاته بشكل تسلّطي "نعم" بجانب كلّ "لا"، ويضع "لا" بجانب كلّ "نعم"، يكشف ذاته إلى ما لا نهاية، لمدّ أقطاب كيانه إلى ما لا نهاية، وليستمتع كما لو كانت هذه هي حياة الرّوح الحقيقية، بالتّوتر الكهربائي المتواجد بين نهايتَيْ قُطبَيْه. الهروب الدّائم من الذّات، وبلوغ الذّات ("الرّوح التي تهرب من نفسها تريد إيجاد ذاتها في الحلقة الأوسع")، ويقوده هذا في النّهاية إلى استثارةٍ جنونية، يُصبح في هذا الإفراط هلاكه.

لأنّه، وبالتّحديد في اللّحظة التي يمتدّ فيها شكلُ كيانه إلى أقصى الحدود، ينفجر توتّر روحه: تنفجر نواة النّار، القوّة البدائية والشّيطانية، وتحطّم هذه القوّة الأساسية بصدمةٍ بركانية واحدة سلسلةَ الشّخصيات العظمى التي انتزعها عقله من دمه، ومن حياته في بحثه عن اللّامحدود.

بحاجةٌ نحنُ إلى الجنوب، مهما كان الثّمن،
إلى نبرَاتٍ مشرقةٍ، شفّافةٍ، بريئةٍ، فرحةٍ،
سعيَدةٍ ورقيقةٍ.

اكتشاف الجنوب

"نحن، روّاد الرّوح"

هذا ما قاله نيتشه ذات يوم بفخر، احتفالا بحرّية الفكر الفريدة، تلك التي تجد مساراتها الجديدة في العُنصر اللّامحدود الذي لم يُكتشف بعد.

وبالفعل، قصّة رحلاته الرّوحية، وتحوّلاته وانتفاضاته، ذلك السّعي وراء اللّانهائي، كلّها أشياء تحدث بالضّبط في الفضاء الأعلى، في مساحةٍ غير محدودة روحيًا: ومثلَ منطادٍ أسيرٍ يرمي الوزنَ الزّائد باستمرار، يتحرّر نيتشه باستمرار بالتّخفيف، وبفكّ روابطه. مع كلّ حبل يقطعه، وكلّ تبعية يرفضها، ينهض دائما بأريحية رائعة ليتقدّم نحو بانوراما أوسع، ومشهد أكثر شمولاً، ومنظور نقيّ خارج عن نطاق الزّمن.

بالكاد يمكننا تعداد وتمييز كمٌ لا يُحصى من تغيّرات الاتّجاه، قبل

أن يلتقي المركب الشّراعي الصّغير بالعاصفة المهولة التي ستكسره. وحدها لحظة حاسمةٌ، مهمّة بشكل خاص، تَبْرُز بقوّة ورمزيّة في حياة نيتشه: يتعلّق الأمر في الوقت نفسه باللّحظة المأساوية التي يقطع فيها آخر حبلٍ ليرتفعَ المنطاد من الأرض صاعدًا في الهواء الطّلق ويتنقّل من الجاذبية إلى العنصر اللّامحدود.

في حياة نيتشه، هذه الثّانية مُمَثّلة باليوم الذي غادر فيه ميناءه ومرساه، وطنه، كرسيّ الأستاذية، مهنته، كي لا يعود إلى ألمانيا إلّا في رحلة طيران سريعة ومحتقرة – وقد وجد نفسه إلى الأبد في عنصرٍ آخر موعودًا لحريّة أكبر. لا أهميّة تُذكَر لكلّ ما يحدث حتّى تلك السّاعة بالنّسبة للشّخصية الأساسية لنيتشه، والمنتمية إلى التّاريخ العالمي:

ما التّغييرات الأولى في الحقيقة سوى استعدادات لتعرّفٍ أعمق على الذّات.

ولولا ذلك الاندفاع الحاسم نحو الحريّة، رغم كلّ روحانيّته، كان سيظلّ في حالة خضوع؛ ويبقى واحدًا من أولئك الأساتذة الذين تمّ اختزالهم في تخصّص واحد، "إيروين رود" أو "ديلتي"، واحدًا من أولئك الرّجال الذين يتمّ تكريمهم في دوائرهم الضيّقة الصّغيرة، دون أن نرى فيهم رغم ذلك اكتشافا لعالمنا الرّوحي الخاص.

وحده ظهور الطّبيعة الشّيطانية، وفيضان شغفه الفكري، ذلك الإحساس بالحريّة البدائية، هو ما صنع من نيتشه شخصية نبوية، وحوّل مصيره إلى أسطورة. وبما أنّني هنا أحاول أن أمثّل حياته، ليس بشكل درامي، بل كمسرحية، كعملٍ فنيّ ومأساة للرّوح، يبدأ عمله الحقيقي بالنّسبة لي فقط في اللّحظة التي يُخلَقُ فيها الفنّان بداخله ويدرك حريّته. يمثّل نيتشه في شرنقته اللّغوية مشكلةً لعلماءِ اللّغة: بينما، ينتمي وحده الرّجل المجنّح، "رائد الرّوح" فعلًا إلى الابداع الأدبي.

الجنوب هو الاتّجاه الذي قرّر نيتشه سلوكه أوّل الأمر، باعتباره بحّار "الأرجو"، في رحلة بحثه عن ذاته، وسيظلُّ هذا هو تَحَوُّلَ تحوُّلاتِه. كما كانت الرّحلة إلى إيطاليا قطيعةً حاسمة من النّوع نفسه في حياة "جوته": لجأ هو أيضًا إلى إيطاليا ليبحث عن أناه الحقيقي، ليتنقّل من العبودية إلى الحريّة، ومن مجرّد العيش بخمول إلى حياةٍ مبدعة خلّاقة.

وعندها أيضا، عندما يعبر جبال الألب في أوّل إشماع الشّمس الإيطالية، يحدث تحوّلٌ بقوّةِ انفجارٍ بركاني، يكتب وهو لا يزال في "ترينتو": "يُهيّأ لي أنّي راجعٌ من القطب الجنوبي". هو أيضا "يجعله الشّتاء مريضا"، و "في ألمانيا، يتألّم بسبب السّماء الكئيبة"، هو

باعتباره أيضا طبيعة منجذبة نحو الضّوء، ونحو وضوح عالٍ، يحسّ في اللّحظة التي يطأ فيها التّراب الإيطالي داخل كيانه بتدفّقٍ أساسي من الإحساس الحميم، مثل توسّع وتحرير، حاجة إلى حريّة جديدة، أكثرَ شخصية. لكن يجرّب "جوته" معجزة الجنوب بعد فوات الأوان، فقط في عامه الأربعين؛ بعد أن أصبحت القشرة حول طبيعته صلبة جدّا، قشرة صُنعت من منهجية وتفكير: بقيَ جزء من كيانه، من فكره، في منزله هناك، في البلاط، مع رتبته ومهامّه.

كان قد تبلور داخلَ ذاته بشدّة لا تسمح له بالتّحول الكلّي مجدّدا، أو بالتّغيّر بفعلِ أيّ عنصرٍ كان. أن يترك نفسه يخضع لسيطرةٍ هو أمر متناقض مع القاعدة العضوية لحياته: يريد "جوته" دائمًا أن يظلّ سيّد مصيره، وألّا يأخذ من الأشياء إلّا ما يسمح لنفسه به (بينما وعلى العكس من ذلك، يستسلم دائما كلّ من نيتشه، "هولديرلين"، "كلايست"، أولئك المشتّتون، كليّا، بكلّ روحهم، لكلّ انطباع، سعداء بأن يكونوا مُجدّدا غارقين بها في تيّارات ونيران نهرِ الحياة).

يجد "جوته" في إيطاليا ما كان يبحث عنه، لا أكثر: فما يبحث عنه هي روابط أعمق (بينما يسعى نيتشه للحصول على حريّات أسمى)، وذكريات عظيمة من الماضي (بينما يبحث نيتشه عن المستقبل العظيم، ويريد التّحرّر من كلّ ما هو تاريخي)؛ هو في الحقيقة لا يهتمّ

إلّا بالأشياء الموجودة تحت الأرض: الفنّ العتيق، والرّوح الرّومانية، وأسرار النّبات والحجر (بينما ينظر نيتشه بحماسة ونشوة وسعادة إلى الأشياء الموجودة على الأرض: السّماء، سماء الياقوت، الأفق الصّافي الذي لا ينتهي، وسحر تدفّق النّور الذي يتغلغل عبر جميع مساماته).

ولهذا السّبب فتجربة "جوته" هي أوّلا فكرية وجمالية، في حين أنّ تجربة نيتشه حيّة: بينما يجلب الأوّل أسلوبًا فنيًا من إيطاليا، يكتشف نيتشه هناك أسلوبَ حياة. في الوقت الذي خُصّبَ فيه جوته ببساطة، تمّت إعادة زرعِ نيتشه وتجديده. حتّى القادم من "فايمار" يحسّ بالحاجة للتّجدّد ("بالتّأكيد، من الأفضل ألّا أعود قطعيا إن لم أتمكّن من العودة بحياة جديدة")، ولكن، مثل أيّ شكل نصف مجمّد، فَقَدْ فَقَدَ القدرةَ على الخضوع لـ "الانطباعات".

من أجلّ تحوّل جذري كامل يشبه تحوّل نيتشه، كان الأربعينيّ قد اكتمل تطوّره بشكل لا يسمح له بذلك، أنانيّ جدّا، وفوق كلّ اعتبار، شديد التّمرّد: غريزة الحفاظِ على ذاته القويّة والصّلبة (والتّي ستتحوّل في سنواته الأخيرة إلى درعٍ صلب جليدي) لا تمنح للتّغيير إلّا مساحةً محدودة أمام الاستقرار.

بصفته رجلا حكيما يتبّع حميةً، فهو لا يقبل إلّا ما يعتقد أنّه سيكون

مُفيدًا بالضّرورة لطبيعته (بينما تأخذُ الشّخصية الدّيونسية من كلّ شيءٍ بإفراط، دون أدنى خوفٍ من الخطر). كلّ ما يريده "جوته" من الأشياء هو أن تثري ممتلكاته، لكنّه لا يسمح لنفسه أبدًا أن يضيع في أعماق الأشياء لدرجة التّحوّل. ولهذا كانت آخر كلمة له بخصوص الجنوب عبارة عن شكرٍ مدروسٍ بعناية، وموزونٍ بجدّيّة، والذي يبقى رغم كلّ شيء سلبيا، يقول في آخر كلماته عن إيطاليا: "من بين الأشياء المحمودة التي تعلّمتها خلال هذه الرّحلة، يجب تفهّم حقيقة أنّي غير قادرٍ في أيّ حال من الأحوال على العيش وحيدا، أو أن أعيش خارج وطني".

يكفي قَلْبُ هذه العبارة، ذات الملامح القاسية مثل ميدالية، وسنتحصّل في الجوهر على التّأثير الذي مارسه الجنوب على نيتشه. يتعارض استنتاجه تمامًا مع استنتاج "جوته"، فليس بإمكانه منذ ذلك الوقت سوى العيش وحيدًا، وفقط خارج وطنه؛ وبينما عاد "جوته" بعد مغادرة إيطاليا إلى نقطة انطلاقه بالضّبط، بعد أن قام برحلة مُفيدة وممتعة، جالبًا معه في أمتعته، في قلبه وعقله، الأشياءَ الثّمينة من أجل البيت، بيته هو، أصبح نيتشه بكلّ تأكيد مغتربًا، ووجد ذاته: "أميرًا خارجًا عن القانون"، سعيدًا لكونه بلا وطن، بلا منزل ولا أملاك، بعيدا للأبد عن "تفاهات الوطن"، وعن كلّ "خضوع وطني".

كلّ ما تبقّى له هو التّأمل من منظور مباشر بعينِ "الأوروبيّ الحقيقي"، هو الذي يحسّ انتماءه لفصيلة "الانسان التّائه أساسا، والمتموضع فوق مفهوم الأمم والأوطان" والتي يحسّ اقتراب نهايتها وشيكا لا محالة، منظور يضع به إقامته الخاصّة في مملكة تقع في العالم الآخر. في المستقبل. بالنّسبة لنيتشه، لا يكون المثقّف "في موطنه" في المكان الذي ولد فيه (فالولادة من الماضي، من التّاريخ)، بل في المكان الذي هو نفسه يَلِدُ فيه ويُنْجِب إلى الدّنيا: Ubi pater sum، ibi patria. –

"حيث أنا أبٌ، حيث أُنجب، هناك موطني"؛

وليس حيث وُلِد.

الفائدة غير القابلة للتّغيير والتي لا تُقدّر بثمن، تلك التي استقاها من رحلته إلى الجنوب هي أنّ العالم بأسره، ومنذ ذلك الحين، قد أصبح لنيتشه دولة أجنبيةً وموطنًا، وصار بإمكانه الاحتفاظ بنظرة الطّائر تلك، نظرة واضحة ثاقبة لطير جارح محلّق في الأعالي، نظرة تحوم في كلّ الاتّجاهات، تذهب إلى جميع الآفاق المفتوحة واسعة.

(وعلى العكس من ذلك، يعرّض "جوته" شخصيّته للخطر، لكنّه أيضا يحافظ عليها، من خلال "تطويق نفسه بآفاق مغلقة"). بمجرّد أن استقرّ نيتشه في الجنوب، وجدَ نفسه قد تجاوز كلّ ماضٍ؛ تخلّى عن

ألمانيته، وتخلّص نهائيا من فقه اللّغة، ومن المسيحية، ومن الأخلاق أيضا؛ ولا شيء يميّز طبيعته المفرطة والحيوية مثل هذه الحقيقة: لم يتراجع أبدًا ولو بخطوة، ولم يلق ولو بنظرة حنين واحدة أو ندم على ماضيه. ملّاح مملكة المُستقبل سعيد للغاية لأنّه ركب على متن "أُسرع سفينة متّجهة إلى كوسموبوليس" لدرجةٍ لا تسمح له بالشّعور بالحنين إلى موطنه الأحادي، الأحادي اللّغة، والثّابت. ولهذا السّبب، فتجب إدانة كلّ محاولةٍ لإعادة أَلْمَنَتِه من جديد، باعتبارها خطأً (وهو خطأ شائع جدًا هذه الأيّام).

بالنّسبة لهذا الرّجل، مثال الحريّة بامتياز، ومنذ أن أحسّ فوقه بصفاء السّماء الإيطالية، أصبح فكره يرتعد من كلّ "ظلام"، سواء قدم هذا الظّلام من السّحب، من مدرّجات الأساتذة، من الكنيسة أو من الثّكنات؛ لم تعد رئتاه -أعصابه الجوّية- تتحمّل أيّ نوعٍ من الشّمال، من "الجرمانية"، من الثّقل: لم يعد بإمكانه العيش بنوافذ مغلقة وأبواب موصدة، في نصف عتمة، في غروبٍ وضباب فكري. بالنّسبة له، أصبحَ "أن يكون الأمرُ حقيقيًا" هو "أن يكون واضحا"، وهو الرّؤية على مدى واسع، ورسمٌ لحدودٍ دقيقةٍ إلى ما لا نهاية؛ ومنذ أنْ أَلَّهَ، بكلّ سُكْرِ دمه، هذا النّور، هذا الضّوء الأساسي القاطع المخترق الجنوبي، كان قد كفر للأبد "بالشّيطان الألماني الحقيقي،

العبقري، شيطان الظّلمات".

الآن وقد استقرّ للعيش في الجنوب، في "الخارج"، يرى ذوقه التي يكاد يشبه تذوّق الأكلات في كلّ ما هو ألماني أكلا ثقيلًا جدًا، ومُثقِلًا جدًا بالنّسبة لذائقة راقية، نوعًا من "عسر الهضم"، وطريقة لعدم الانتهاء أبدًا من دراسة الإشكالات المطروحة، طريقة في جرّ مدحلة ضاغطة على الرّوح معه طوال حياته حيثما ذهب: بأيّ حال، لن يكون كلّ ما هو "ألماني" بالنّسبة له أبدًا لا حرًا بما يكفي، ولا "خفيفا" بما يكفي.

أصبحت حتّى أحبّ الأعمال إلى قلبه ذات زمن تسبّب له عسرَ هضم فكري: مع أوبرا "الأساتذة الموسيقيون"، أصبح يشعر بالثّقل، بالتّصنع الزّخرفي، بأسلوب باروكي، بجهد عنيف نحو الاطمئنان والصّفاء؛ وأصبح يحسّ عند "شوبنهاور" بالأحشاء الممزّقة، وعند "كانت" بذوقٍ من النّفاقِ لأخلاقية دولة؛ عند "جوته"، بثقل صنعته المهام والمراتب، وكذلك الآفاق المحدودة بطريقة عمدية.

أصبح كلّ ما هو ألماني بالنّسبة له شفقًا، عتمة، وظلامًا؛ فالأمر يحوي الكثير من ظلال الماضي، والكثير من التّاريخ، وهو وعبء ثقيل جدًا على أناه الذي اجترّه خلفه: كمّ هائل من الاحتمالات، ورغم ذلك لا شيء واضح، طريقةٌ للتّساؤل باستمرار، للرّغبة، للتّنهد والبحث، مآل

مؤلم وأليم، اهتزاز أبدي بين نعم ولا.

لكن لا يوجد هنا سوى احراجُ المثقّف أمام بنية التّفكير التي كانت آنذاك بنية ألمانيا الجديدة، "الجديدة جدّا"، والتي بلغت بالفعل ذروتها ونقطتها الأبعد؛ وهو ليس فقط استياءً سياسيا سبّبته "الإمبراطورية" وكلّ الذين ضحّوا بفكرة ألمانيا لصالح مثالية المدفع؛ وليست فقط كراهية جمالية لألمانيا ذات الأثاث الفخم، أو برلين بأعمدة النّصر المشيّدة فيها، الأمر أكبر من كلّ ذلك بكثير. صارت عقيدة الجنوب الجديدة، والتي أصبحت عقيدة نيتشه، تشترط على كلّ الإشكاليات، وليس فقط الوطنية منها، وعلى كلّ سلوكيات الحياة وضوحًا كوضوح الشّمس وصفاءً حرًّ التّدفق، "النّور، النّور ببساطة، حتّى لو أضاء أبشع الأشياء"، صارت تشترط أسمى المتع بأسمى الشّفافية gaya scienza، لا التّعليم التّربوي المأساوي لـ" شعوبِ التّلقين المدرسي"، وسعة الاطلاع الموضوعية، والمعلّمة الجادّة للألمان، والتي تفوح منها رائحة مكاتب العمل وقاعات التّدريس.

تخلّيه النّهائي عن الشّمال، عن ألمانيا، عن الوطن، لا ينبع من عقله، من فكره، بل من أعصابه، من قلبه، من العواطف والحشى؛ إنّها صرخة تحرير نابعة من الرّئتين اللتين وجدتا من جديد الهواءَ الطّلق، غبطة السّجين الذي عثر أخيرا على "الطّقس الذي يلائم روحه":

الحريّة. من هنا، يأتي اندفاعه للفرح الحميم، صرخة سعادته الخبيثة حينما قال: "لقد قَفَزْت".

في الوقت نفسه الذي يساعده فيه على التّجرّد من ألمانيته، يساعده الجنوب على التّجرد من مسيحيّته أيضا تمامًا. وبينما هو يستمتع بالشمس مثل السّحلية، وروحه تشتعل بالنّور حتّى أعمق شبكاته العصبية، مُتسائلا ما الذي جعل العالم مُظلماً طوال تلك الفترة، ما الذي أقلقه إلى تلك الدّرجة، وأحبطه، لفترة طويلة، ما الذي جعله مدركا للخطيئة إلى هذا الحدّ، وذلك عن طريق تجريد الأشياء الأكثر هدوءً من قيَمِها، والأشياء الأكثر طبيعيّة، وحيوية من خلال جعل أثمن الأشياء التي يملكها العالم، الحياة نفسها، تشيخ، يتعرّف فجأة في المسيحية، في الإيمان بالعالم الآخر، على المبدأ الذي يرمي بظلّه على العالم المعاصر.

دمّرت وخنقت "هذه اليهودية الكريهة الرّائحة، المصنوعة من الحاخامية والخرافات" متعةَ وهدوءَ الكون؛ وقد أصبحت بالنّسبة لخمسين جيلٍ بمثابة أخطر مخدّر أصاب بالشّلل الأخلاقي كلّ ما كان في زمن مضى قوّةً حقيقيةً. لكن الآن (وهنا تحديدا يرى فجأة في حياته رسالةً وواجبًا)، يتوجّب على الحملة الصّليبية المستقبلية ضدّ الصّليب أن تبدأ، لاستعادة أقدس دولة للبشرية: حياة هذا العالم.

منحه "الشّعور الحيوي بالوجود" نظرةً شغوفا لكلّ شيءٍ مُنتَمٍ لهذه الأرض، حقيقةً حيوانية وموضوعًا مباشر؛ وأصبح يدرك فقط منذ هذا الاكتشاف أنّ "الحياة الأرجوانية الصّحية" قد أخفيت عنه بالبخور والأخلاق طيلة عديد السّنوات. في الجنوب، في هذه "المدرسة العظمى للشّفاء الفكري والجسدي"، تعلّم أن يكون طبيعيًا، وأن يتلذّذ دون ندم، أن يتعرّف على الحياة الهادئة السّعيدة، دون خوف من شتاء ولا خوف من رب؛ اعتنق العقيدة التي تقول للذّات نعم، "نعم" ودّي وبريء.

لكنّ هذا التّفاؤل آتٍ بدوره من الأعلى، والحقيقة أنّه ليس قادما من ربٍّ مُتخفٍّ، بل من السّر الأكثر تفتّحا ونفعا، الشّمس والنّور. "في سانت بطرسبرغ، كنت سأكون عدميًا؛ هنا، مثل النّبات، أنا أؤمن بالشّمس".

كلّ فلسفته وليدة دمه المحرَّر مباشرة، قال ذات مرّة لصديق: "ابقَ جنوبيًّا، ولو فقط بالإيمان". لكن، لمّا يكون الوضوح شفاءً بهذه الفعالية لأحدهم، فهو يصبح مقدّسا: وباسمه، يشنّ حربًا، أفظعَ حملاته على الاطلاق ضدّ الذي يهدّد على وجه الأرض بتدمير الهدوء، والصّفاء، والحريّة العارية والنّشوة المضاءة بأشعّة شمس الحياة. "موقفي تجاه الحاضر، هو حرب مسلّحة".

ولكن في الوقت نفسه، ومع هذه الجرأة، يدخل الفخر أيضا في حياةِ

عالم اللّغة التي قضاها إلى ذلك الحين خلف النّوافذ المغلقة، في سكونٍ مَرَضي؛ اضطربت فجأة دروةُ دمه التي كانت مجمّدة إلى ذلك الحين، وتسارعت: إلى أبعدِ أطراف الأعصاب، تحت الضّوء المرشّح، بدأ شكل الأفكار البلّوري يتحرّك، وفي الأسلوب، في اللّغة المتدفّقة فجأة والمتحرّكة، جعلت الشّمس شظايا الماس تتلألأ.

كلّ شيء مكتوب "بلغة الرّياح التي تذيب الجليد"،

كما يقول هو نفسه عن أوّل كتبه المؤلّفة في الجنوب: هنالك نبرة تحرير عنيف وازدهار، مثل التي تأتي بعد أن تتكسر طبقة الجليد ويبدأ الرّبيع اللّطيف في الانتشار على المشهد بمتعةٍ مداعِبةٍ ومُبهِجة. ضوءٌ حتى آخر الأعماق الأخيرة، وضوحٌ إلى غاية آخر الارتعاشات، وموسيقى تبثّ حتّى في كلّ صمت، وفوق كلّ ذلك تلك النّبرة التي تشبه برد الأيّام بعد الانقلاب الشّمسي، تلك السّماء المغمورة بالصّفاء! يا له من اختلاف في الإيقاع بين اللّغة التي كان يوظّفها من قبل، والتي، كانت دقيقة التّعابير وقويّة البنية فعلا، لكنّها في المجمل متحجّرة، وهذه اللّغة الجديدة، ذات الاندفاعات الصّوتية الرّنانة، هذه اللّغة البالغة السّعادة، المرنة والمعطاء، التي تحبّ استخدام كلّ أطرافها، والتي، تتحرّك مثل الإيطاليين بالعديد من الإيماءات، لغة لا تكتفي بالتّحدث بينما تظلّ ساكنة دون أن يشارك الجسد في التّعبير، مثل

الألمانية!

لم يعد نيتشه يأتمن على أفكاره المتفتّحة بحريّة والتي ازدهرت خلال جولاته، مثل الفراشات: اللغةَ الألمانية الجادّة والرّنانة التي يتميّز بها الانسانيون، من يرتدون السّواد، تريد أفكاره -بنات الحريّة- لغةً مرنة واثبة، مطّاطة، بجسد رشيق وعارٍ، مثل لاعبة جمباز، بمفاصل مرنة، لغةً يمكنها العدو والقفز والارتقاء في الهواء والانحناء، والتّمدد وتأدية جميع أنواع الرّقصات، من رقصة الميلونكوليا انتقالا إلى رقصة التّرنتيلا الجنونية، لغة يمكنها تحمّل كلّ شيء وقول كلّ شيء- دون أن يكون لها أكتف حمّال أو مشية رجل منهك تحت ثقل عبء. ذابت واختفت من أسلوبه كلّ سلبية الحيوانات الأليفة المستأنسة، وكلّ جديّة الأشياء المريحة. يتحوّل من التّلاعب الصّغير بالألفاظ إلى أرقى السّعادة وأقصاها، ويحتفظ رغم ذلك أحيانا بالنّبرة المثيرة للشّفقة، المبالغ فيها، المشابهة لصدمة تدوّي على ناقوسٍ قديم جدًا. أسلوب يفيض بالتّحديد والحيوية، جعلته الأقوال المأثورة يتلألأ مثل الشّامبانيا، ومع ذلك، باستطاعته أن يفيض فجأة في ثورانٍ إيقاعي. يمتلك نورًا مذهّبا ومهيبًا مثل خمر "الفالرن" العتيق، فضلاً عن شفافية سحرية حتى أعظم أعماقه، وإشعاع شمسي لا شبيه له في مجراه السّعيد البهيج والمتألّق.

لم يحدث أبدا أن اكتسبت لغة شاعر ألماني شبابا جديدا بسرعة كتلك، فجأة وكليًا؛ والأكيد أنّ الشّمس لم تتغلغل في لغةٍ غيرها لتحرّرها بهذا القدر، وتصبح جنوبيةً، راقصةً بشكل مذهل، نبيذيةً، وثنيةً لهذا الحدّ. نجد فقط من جديد في العنصر الأخوي لـ"فان خوخ" هذه المعجزة التي تتمثّل في سقوط الشّمس داخلَ رجلٍ من الشّمال: وحده الانتقال من الأطياف اللّونية الحزينة، البنية المُثقَلة لسنواته في هولندا إلى الألوان المنيفة، الحادّة، المُغنّية والبيضاء المتوهّجة لمنطقة "البروفنس"، وحده دخول الجنون الضّوئي في هذه الرّوح التي أصبحت بالفعل شبه عمياء، يمكن مقارنته بالتّنوير الذي أحدثه الجنوب في كيان نيتشه. وعند هذين المتعصبّيْن للتّغيير، حدث التّسمّم، هذا التّشبع بالنّور، بحماسةٍ وشغف مصّاص الدّماء، بهذه السّرعة وكان غير مسبوق. يعرف الشّيطانيون وحدهم معجزةَ ازدهار مُحْتَرِقٍ إلى آخر ألياف رسوماتهم، موسيقاهم، وكلماتهم.

لكن يكون جديرا بنيتشه انتماؤه لسلالة الذين تسكنهم الشّياطين لو كان بإمكانه أن يشبع من أيّ سُكْرٍ كان: لذلك فهو دائم البحث عن شيء أفضل من الجنوب، شيء مضاعف لتأثير إيطاليا، يبحث عن "ضوءٍ أسمى"، عن "وضوحٍ أسمى". مثلما ينقل "هولديرلين" "هيلا" تدريجياً نحو "آسيا"، أي نحو الشّرق، في بلادِ البربر، في

النّهاية أيضا، يشحن شغفٌ نيتشه بشرارات نشوةٍ جديدة استوائية، ليتوق لكلّ ما هو أفريقي. يبحث عن حريق الشّمس، وسط نوره، وضوح يمضّه بوحشية، بدل أن يلفّ الأشياء ببساطة بخطّ دقيق؛ يريد تشنّجا من المتعة، بدل الهدوء: تنفجر بداخله الرّغبة اللامتناهية ليحوّل إثارات الحوّاس الصّغيرة كليّا إلى سكر، وليجعل من الرّقصة تحليقًا، وليحمل الإحساس الدّافئ بالوجود إلى الطّيف الأحمر الفاقع.

وبينما تتضخّم هذه الرّغبات في أوردته، لم تعد اللّغة تكفي لعقله الجامح. لتصبح بدورها شديدة الضّيق بالنّسبة له، ماديّة جدّا، ثقيلة جدّا. يحتاج إلى عنصر جديد من أجل رقصة ديونيسوس هذه التي بدأت فيه بنشوة؛ يحتاج إلى حريّة أسمى من التي يمكن أن يمنحها له الخضوع للكلمة؛ ولهذا يعود إلى عنصره البدائي الأوّلي، إلى الموسيقى. موسيقى الجنوب، وهذا هو آخر إلهامه، موسيقى يصبح فيها الوضوح لحنا، ويصبح فيها للرّوح أجنحة. ويبحث عنها، ويبحث عنها، هذه الموسيقى الجنوبية الشّفافة، في جميع الأزمنة وفي كلّ المناطق، دون أن يجدها - حتّى يخترعها لنفسه.

أوه! تعال، أيّها الصّفاء الذّهبي!

هروبٌ نحو الموسيقى

تواجدت الموسيقى بكيانِ نيتشه منذ البداية، لكنّها ظلّت كامنة، مُنحّاة جانبا بإرادة تبريرٍ روحي أقوى. وهو لا يزال بعد طفلاً، كثيرا ما كان الصّبي يلهم أصدقاءه بارتجال جريء؛ كما نجد في دفاتر شبابه عديد الإشارات إلى مؤلّفاته الموسيقية. لكن كلّما اتّجه الطّالب بجديّة نحو فقه اللّغة، ومن ثمّ اعتناقه الفلسفة، كلّما خَنَقَ قوّةَ طبيعتهِ التي كانت تطمح في الخفاء إلى إطلاق العنان لنفسها. تبقى الموسيقى بالنّسبة للّغوي الشّاب راحةً ممتعة، ترفيهًا، ومتعة كالمسرح، والمطالعة، ركوب الخيل أو المبارزة، نوعٌ من الجمباز الرّوحي لأوقات الفراغ. في أولى سنوات نيتشه، وكنتيجة لهذا التّوجيه الحريص داخلَ قنوات معيّنة، ولهذا الاحتواء المقصود، لم ترشح أيّ قطرة في عمله لتُخصّبه:

عند كتابته مؤلّف "مولد التراجيديا من روح الموسيقى"، ظلّت الموسيقى بالنّسبة له مجرد شيء، موضوعًا روحيًا، لكن لا يدخل أيّ تعديل للإحساس الموسيقي في لغته، أو شعره أو فكره. حتّى محاولاته

كتابة الشّعر في شبابه مُجرّدة من كلّ موسيقيّة، والمدهش أكثر، هو أنّ محاولاته لتأليف الموسيقي بَدَتْ، حسب ما حكم عليها "بيلو"، والذي لا تنقصه الكفاءة بالتّأكيد، أنّها مجرّد روح لا شكلَ لها، وموسيقى نموذجيّة مضادّة للموسيقى. ظلّت الموسيقى بالنّسبة له لفترة طويلة مجرّد ميول خاص، ينغمس فيه العالِم الشّاب باللّذة التي تُميّز انعدام المسؤولية، بفرح الهاوي الخالص، بعيدا عن كلّ "مهمّة".

لم تبرز الموسيقى في عالم نيتشه الدّاخلي إلّا عندما تكسّرت قشرة فقه اللغة، والحيادية المطّلعة العليمة، لمّا اهتزّ كونه كاملا وتمزّق بارتجاجاتٍ بركانية. عندها، انهارت السّدود، وعمّ الطّوفان فجأة. بقوّة أكبر، تنقل الموسيقى دائما الرّجالَ الذين هم في قبضة بعض الاضطرابات، المُضعَفين، والخاضعين لتوتّرات عنيفة، والممزّقين إلى أعمق أعماق كيانهم، بأيّ شغفٍ كان؛ وقد فهم تولستوي ذلك جيّدا، وجرّبه "جوته" بشكلٍ مأساوي.

حتّى "جوته" نفسه الذي اتّخذ من الموسيقى موقفا حذرا، قلقا ومتحفّظا (كما كان ذلك موقفه اتّجاه كلّ ما هو شيطاني، لأنّه كان يتعرّف على الشّيطان المغري الذي يسكن في كلّ تحوّل)، ها هو ذا يستسلم بدوره للموسيقى في لحظات الاسترخاء (أو، كما يقول هو نفسه، في لحظات "الانفتاح") التي يكون فيها كلّ كيانه مضطربًا، في

ساعات ضعفه، في لحظات تجرّده. في كلّ مرّة (وآخر مرّة كانت رفقة "أولريك") يكون فيها ضحيّةَ شعورٍ لا سيِّدَ نَفْسِه، تخترق الموسيقى السّدود حتّى الأقوى منها، وتنتزع منه الدّموعَ كضريبة وكشكرٍ مُكرَهٍ موسيقى شعرية، الأروع على الإطلاق. تحتاج الموسيقى دائما (ومن لم يجرّب هذا الإحساس؟) أن نكون في حالةِ قابليّةٍ للتّلقي، في حالة كسلٍ أنثوي سعيد، لتَخصِّب شعورًا:

وهكذا، تلمس شعور نيتشه، هو أيضا، في اللّحظة التي يفتح له فيها الجنوب آفاقًا أخرى، والتي يأمل فيها أن يعيش بحماس أكبر، وشغف أعنف. وبفضل صدفة لافتة للنّظر، تدخل فيه بالضّبط في الثّانية التي تغادر فيها حياته الرّاحة، والاستمرارية الملحمية، لتتوجّه نحو المأساوي، وبفضل تنفيس مفاجئ، كان يظنّ أنّه يعبّر عن "مولد التراجيديا من روح الموسيقى"، وإذا به يجد نفسه يجرّب العكس تماما، ويعبّر عن مولد الموسيقى من روح التراجيديا. ما عاد بإمكان القوّة الفيضية للأحاسيس الجديدة أن تعبّر عن ذاتها في خطاب موزون؛ وأضحت تتوق لعنصرٍ أقوى، لسحرٍ أعلى: " سيتوجّب عليكِ أن تُغنّي، يا روحي!".

وبالتّحديد لأنّ هذا المنبع الشّيطاني الأعمق في كيانه قد أُعيقَ بتأثير فقه اللّغة، والتّعمق في العلم واللّامبالاة، ها هو الآن يتدفّق بهذه القوّة

الكبيرة، ويدفع بهذا الضّغط إشماعَهُ السّائلَ إلى غاية أليافه العصبية الأكثر احتفاءً، وحتّى آخر نغمات أسلوبه.

كما وبعد تسرّبٍ لحيوية جديدة، بدأت اللّغة، الّتي كانت حتّى ذلك الحين فقط تسعى للتّعبير عن الأشياء، تتنفس فجأة موسيقيّا: اكتسب كلّ من إيقاع "الأندانتي مايستوزو" للخطاب، والأسلوب الشّفاهي الثّقيل لكتاباته القديمة الآن كلًّ انسيابية وتعرّجات حركة الموسيقى المتعدّدة، وخاصيّتها "التّموجية".

تتألّق كلّ أناقة المبدع: التّهتهة -staccati- الحادّة الصّغيرة للحكم، والسّوردينو – sordino-، الصّمت الشّعري للأغاني، والقرص -pizzicati- السّاخر، الأسلوب الجريء يجعل النّثر ينسجم، وكذلك الأقوال والشّعر. حتّى علامات التّرقيم، والتّلميحات، الوقفات، والخطوط تحت الأسطر، لديها كلّها تأثيرُ العلامات الموسيقية: لم نشعر أبدًا في اللّغة الألمانية بنثر مُوَزّن بآلات موسيقية، بنثرٍ مصنوع تارة من عزف أوركسترا صغيرة، وتارة أخرى من عزف واحدة كبيرة.

فعلُ تذوّقِ تعدّديةِ أصواتٍ لم توجد قبل نيتشه حتّى في تفاصيلها، هو بالنّسبة لفنّانِ لُغَةٍ مُتعةٌ تضاهي دراسةَ مقطوعةٍ موسيقية ألّفها أستاذٌ بالنّسبة لموسيقي: كم يوجد من تناغمٍ مختفٍ ومقنّع خلف

النّشاز الأكثر حدّة! يا لها من طريقة تُخمِّن فيها روح الشّكل الشّفافة تحت هذه الوفرة التي تبدو لأوّل وهلة فوضوية! إذ لا تنبض أطراف اللّسان العصبية بالموسيقى وحدها، بل الأعمال في حدّ ذاتها تشبه السّمفونية، وهي لم توضع اعتمادًا على نموذج عمارةٍ فكرية بحتة، وحياديةٍ باردة، بل حسب الهامٍ موسيقيّ مباشر.

مونفسه قال عن زرادشت إنّه:

كُتِبَ "بروح الجملة الأولى من السّيمفونية التّاسعة"؛

وما يجب أن يكون رأينا فعلا عن مقدّمة "هو ذا الانسان"، الكتاب الرّائع عن حقّ، والمتفرّد من وجهة النّظر اللغوية؟ ألا تشبه تلك العبارات العملاقة لحنًا تقديميًا معزوفًا على أرغن كاتدرائية عملاقة مستقبلية؟ شعرٌ مثل "الأغنية اللّيلية"، و"أنشودة مُسيّر الجندول"، أليس الغناء البدائي للصّوت البشري وسط عزلة أبدية؟ ومنذ متى أصبح السّكر موسيقى راقصة إلى هذا الحد، بطولية واغريقية مثلما هي في أنشودة فرحها الأخير، في قصيدة ملحمية لمدح ديونيسوس؟ بعد أن ضربتها أشعّة كلّ صفاء الجنوب على سطحها، وهُيّجت حتّى الأعماق بدوّامات الموسيقى، تصبح اللّغة سائلةً ومتحرّكة مثل الموجة، وفي العنصر البحري الفخم، تدور روح نيتشه حتّى الدّوامة الأخيرة. لكن، وبينما تخترقه الموسيقى بهذا القدر من العنف والاندفاع، يُدرك

نيتشه فورًا الخطرَ بفضل معرفته الشّيطانية: يحسّ بأنّ باستطاعة التّيار أن يجرفه خارج نفسه. لكن، في حين يتجنّب "جوته" كلّ المخاطر (يقول ذات مرّة نيتشه في ملحوظة: "موقف جوته الحذر تجاه الموسيقى"،)، يمسك بها نيتشه دائمًا، لأنّ التّحولات في القيم والتّغير الكليّ في المواقف هو نظامه الدّفاعي. وهكذا (كما هو الحال في مرضه) يصنع من السّم ترياقًا.

يجب على الموسيقى أن تصبح بالنّسبة له شيئا آخر، مغايرا لما كانت عليه في سنواته عندما كان فقيهَ لغة: وعندها، ها هو ذا يشترط منها توتّرا عصبيا أعلى، ولطفا وعذوبة (فاغنر!)؛ وبسكرها وحيويتها، كان عليها موازنة وجوده الهادئ لذاك المتوغّل في العلم، وأن تكون حافزًا لتقتلعه من الرّوح الإيجابية. لكن الآن، وقد أصبح فكره بحدّ ذاته تماديًا وفيضا في العاطفة، أصبح بحاجة إلى الموسيقى كاسترخاء، كنوع من البروميد النّفسي، مثل مهدّئ داخلي.

لا يجب عليها أن تُسكره بعد الآن (لأنّ كلّ ما هو فكري يصبح بالنّسبة له في الوقت الحالي سُكْرا صوتيا)، بل، حسب العبارة الرّائعة لـ"هولدرلين"، يجب أن تمنحه "الفطنة المقدّسة". الموسيقى كوسيلة للاسترخاء لا للإثارة. يبحث عن موسيقى يمكنه اللّجوء إليها عندما يعود مصابًا بجروح قاتلة، يغمره التّعب من مطاردة أفكاره وصيدها؛

يريد أن يجد فيها ملجأ، وحمّامًا، تدفقًا بلّوريًا يُنعش ويُطهِّر: موسيقى إلهية، موسيقى نزلت من علٍ، نبعت من سماءٍ صافية لا من روح تحترق، مضغوطة يملأها جوّ كثيف.

موسيقى تساعده على نسيان نفسه، لا أن تدخله في ذاته وتعيده إلى كلّ نوبات وكوارث الإحساس، موسيقى "تقول نعم، وتومئ أَنْ نعم"، موسيقى جنوبية، مثل المياه في تناغمها، شديدة البساطة، وصافية، موسيقى يمكن "تصفيرها". موسيقى، ليست للفوضى (التي يحتضنها بداخله)، بل موسيقى اليوم السّابع من الخلق، حيث يستريح كلّ شيء، وحيث وحدها الكواكب تحتفي بربّها بهدوء، موسيقى كراحة: "الآن وقد وصلت إلى الميناء، فلتُعزَف الموسيقى، موسيقى!"

الخفّة، هي آخر عشقٍ لنيتشه، ومقياسه الأعلى لكلّ الأشياء. كلّ ما يمنح الإحساس بالخفّة ويهب الصّحة جيّد: في الطّعام، في الرّوح، في الهواء، في الشّمس، في المناظر الطّبيعية المحيطة، وفي الموسيقى. كلّ ما يساعد على الارتقاء، على نسيان ثقل الحياة وقتامتها، وقبح الحقيقة، وهذا وحده مصدر للنّعمة.

ومن هنا يأتي هذا الحبّ المتأخّر للفنون، كما لو أنّه "يجعل الحياة ممكنة"، مثل "منشّط كبير للحياة". الموسيقى، موسيقى صافية شفّافة، محرِّرة، خفيفة، تصبح أغلى عزاء لتلك الرّوح المضطربة حدَّ

الممات. أثناء تشنّجات مخاضاته الدّامية، لم يعد بإمكانه الاستغناء عنها كوسيلة لتسكين الألم. "الحياة دون موسيقى هي ببساطة تعب، خطأ". لا يملك رجلٌ محموم، يمدّ شفتيه المتشقّقتين والحارقتين نحو الماء، حركاتٍ أكثرَ وحشيةً من حركة نيتشه لحظةَ آخر نوباته، عندما يطالب بشرابه الفضّي. "هل شعر قبله رجل بظمأٍ مثل هذا للموسيقى؟"

إنّها خلاصُه الأخير الذي سينقذه من نفسه: ومن هنا أيضا تأتي الكراهية المروّعة التي يكنّها لـ"فاغنر"، والتي عكّرت الصّفاء البلّوري للموسيقى بمخدّراتٍ ومنشّطات؛ ومن هنا أيضا هنا جاءت المعاناة التي يشعر بها نيتشه "من مصير الموسيقى، كما لو كان جرحًا مفتوحًا". لقد صدّ، هو الوحيد، كلّ الآلهة؛ ولم يبق إلّا هذا الشّيء الذي يريد الاحتفاظ به، رحيقُه وغذاءُ خلوده الذي ينعش الرّوح ويعيد لها شبابها الأبدي. "الفنّ، ولا شيء سواه: نلجأ للفنّ كي لا نموت من الحقيقة". بالطّاقة اليائسة لشخصٍ يغرق، يتشبّث بالفن، القوّة الوحيدة في الحياة التي لا تتعلّق بالجاذبية، كي يمسك به الفنّ ويحمله إلى عنصره المبارك السّعيد.

والموسيقى، التّي استُحضِرت بطريقةٍ مؤثّرة إلى هذا الحدّ، تنحني بطيبةٍ نحوه، وتتلقّى جسدَ نيتشه في اللّحظة التي ينهار فيها. تخلّى

الجميع عن هذا الرّجل ضحيّة الحُمّى؛ غادر أصدقاؤه منذ مدّة، بينما لا تزال أفكاره في الطّريق، بعيدًا، في التّرحال المتهوّر: وحدها الموسيقى ترافقه إلى غاية آخر، وسابع وحدته.

ما يلمسه، تلمسه معه، عندما يتحدّث، يرنّ صوت الموسيقى الشّفاف أيضا: وتلتقط بقوّة ذاك الذي سقط بسرعة. وفي الأخير، عندما يسقط في الهاوية، تسهر على روحه المنطفئة؛ يجده "أوفيربيك" الذي يدخل إلى غرفةِ ذاك الذي يلفُّه عمى الرّوح أمامَ البيانو، بينما لا يزال يبحث بيديه المرتعشتين عن نغمات راقية؛ بعد أن حُمِل المجنون المسكين إلى منزله، سيغنّي طيلة الطّريق، بنغمات مؤثّرة، "غناء مسيّر الجندول" . سترافقه الموسيقى حتّى في ظلمات الرّوح، مخترقة بحضورها الشّيطاني حياته وموته على حدّ سواء.

يُدفع بالرّجل العظيم، ويضغط عليه، ويُعذّب حتّى ينسحب إلى وحدته.

الوحدة السّابعة

"أيتّها الوحدة، يا وحدة، يا موطني"، هذا هو النّشيد الكئيب الذي يخرج من عالم الصّمت الجليدي. يؤلّف زرادشت أغنيته المسائية، أغنيته التّي تسبق اللّيل الأخير، أغنيته للرّجوع الأبدي. ألم تكن الوحدة دائما المنزلَ الوحيد للمسافر، بيتَه الجليدي، سقفه الحجري؟ لقد تواجد في عدد لا يحصى من المدن، وقام بعدد لا ينتهي من الرّحلات الرّوحية، وغالبا ما حاول التّملّص منها بذهابه إلى بلد آخر، لكنّه يعود إليها باستمرار، جريحًا، مرهقًا، خائب الأمل، إلى "موطنه، الوحدة".

لكن في الوقت الذي سافرت فيه برفقته دائما، هو رجل التّحوّلات، حتّى هي تحوّلت أيضا، وعندما ينظر إلى وجهها مباشرة، يصيبه الرّعب تمامًا. لأنّها أصبحت شديدة الشّبه به، من طول هذه المخالطة! أصبحت أشدّ قسوة، أشدّ وحشية وعنفًا، مثله تمامًا: تعلّمت كيف تُعذّب وتتضاعف في وجود الخطر. ولا يزال يناديها بوحدته المألوفة المحبوبة

القديمة، لكنّ اسمها لم يعد يلائمها منذ فترة طويلة: فقد تحوّلت إلى عزلة تامّة، آخر وسابع وحدة، أن يُتْرَكَ المرء بهذه الطّريقة شيءٌ لم يعد يحمل اسم وحدة.

تشكّل حول نيتشه في المرحلة الأخيرة من حياته فراغ رهيب، صمت مخيف: لم يُترك أبدًا لا ناسك، ولا مُعتكِف ولا مُخْتَلٍ بهذا القدر؛ إذ يبقى لكلّ متشدّدي العقائد الرّب، والذي يسكن ظلّه الكوخ، أو يظلّلهم من أعلى خلوتهم. لكن بالنّسبة له، هو "قاتل الرّب"، لم يبق بقربه لا ربّ، ولا إنسان؛ وكلّما اقترب من أناه، كلّما ابتعد عن العالم، وكلّما امتدّت رحلته، كلّما زاد كبر "الصّحراء" من حوله. عادةً، ترى أكبر الكتب وحدةً القوّةَ المغناطيسية التي تمارسها على البشر تتزايد ببطء وصمت: بقوّة غامضة، تجلب حلقةً لا تنفكّ تكبر من النّاس في مدار فلك وجودها وحضورها الذي لا يزال خفيّا؛ لكنّ عمل نيتشه مارس فِعْلًا طاردًا؛ أبعد عنه تدريجيا كلّ أصدقائه وعزله أكثر بعنف متزايد عن الحاضر.

يكلّفه كلّ كتاب جديد خسارةَ صديق، وكلّ مُؤلّف علاقة. شيئًا فشيئًا، تجمّد آخر وأهون رابطٍ بأفعاله: في البدء فَقَد علماء اللغة، ثمّ "فاغنر" ومجموعتَه الفكرية، وبعدها رفقاءَ شبابه. لم يعد بإمكانه العثور على ناشرٍ في ألمانيا؛ وتراكم إنتاج عشرين عامًا، والذي يزن أربعة وستين

قتطارًا، دون ترتيب في قبوٍ ما؛ وتحتّم عليه اللجوء لاستعمال ماله الخاص، والذي ادّخره بصعوبة، أو ذاك الذي مُنِح له، ليتمكّن من متابعة إصدارِ كتبه. لكن لم يتوقّف الأمر عند غياب من يقتنيها، بل وحتّى عندما يهبها، في الأخير، لم يعد لنيتشه قرّاء. لم يطبع-على حساب نفقته الخاصّة- من الجزء الرّابع من زرادشت، إلّا أربعين نسخة، ولم يجد من بين السّبعين مليون من سكّان ألمانيا سوى سبعة أشخاص يمكنه إرساله لهم، لأنّه، وفي ذروة عطاء عمله، أصبح غريبا، غريبا معزولا عن عصره.

لا أحد يتكرّم عليه بفتاتٍ من عرفان، أو يدين له بأدنى شكر: بل على العكس من ذلك، وحتّى لا يفقد آخر أصدقاء طفولته، "أوفربيك"، سيتوجّب عليه الاعتذار عن تأليف الكتب، وأن يطلب الصّفح عنها. "صديقي القديم (نسمع نبرة قلقه، ونرى وجهه المتشنّج، يديه الممدودتين، حركة ذاك الذي استبعد والذي يخشى ضربة جديدة)، اقرأه من البداية إلى النّهاية، ولا تدع القراءة تخلط عليك الأمور وتنفّرك. رَكِّز كلّ قوّة إحسانك مِن أجلي. لو أنّ الكتاب بالنّسبة لك لا يطاق، فربّما مئة تفصيل لن يكونوا كذلك". هكذا، يُقدِّم أعظم عقلٍ في القرن لمعاصريه في العام ١٨٨٧، أعظمَ كتب تلك الفترة، ولا يجد شيئا أكثر بطولية ليحتفي به في صداقة من قوله: "لا شيء استطاع

تدميرها، ولا حتّى زرادشت!" وذلك بسبب أنّ عمل نيتشه الإبداعي أصبح يشكّل لمقرّبيه اختبارا، واحراجًا لا يطاق! أصبح الهواء أكثر فأكثر ندرة من حوله، والصّمت والفراغ دائما أكبر.

حوّل هذا الصّمت وحدَة نيتشه السّابعة إلى جحيم: وها هو ذا يحطّم رأسه على جدارها المعدني.

"ألّا تُسمَع بعدَ نداءٍ كنداءِ زرادشت، النّابع من أعماق الرّوح، ولا كلمةَ إجابةٍ واحدة، لا شيء، لا شيء، فقط الوحدة الصّامتة المضاعفة -يوجد في هذا الشّيء رعبٌ يستحيل تصوّره، رعبٌ بإمكانه القضاء على أقوى البشر"، اشتكى ذات يوم، مُضيفًا: "ولست الأقوى. يبدو لي أحيانًا أنّني مجروح حدّ الممات".

لكنّه لا يطالب باعترافاتٍ، وتصفيقٍ، ومجد-على العكس، لا شيء يلائم طبعه الحربي كالغضب، السّخط، الازدراء أو حتّى السّخرية ("في حالة من يشبه وترَ القوس المشدود الذي يكاد يتقطّع، كلّ مجهود مرحّب به، ما دام عنيفا")؛ يريد أيّ إجابة كانت، حارقة أو باردة، ولو حتّى فاترة، شيئًا مَا، ببساطة، أيّ شيء ليعطيه دليلا على وجوده، على حياته الرّوحية.

لكن يتجاهل حتّى أصدقاؤه بقلقِ الإجابةَ المنتظرة، متفادين في رسائلهم إبداء أيّ رأي، مثل شيءٍ محرج. وهذا هو بالتّحديد الجرح

الذي ينخر فيه أكثر فأكثر، ويضرب كبرياءه، يؤجّج احترامه لذاته، ويحرق روحه، "الجرح من عدم تلقّي أيّ إجابة". وحده هذا الجرح سمّم وحدته، وزرع الحمّى فيها.

وها هي ذي الآن الحمّى تنفجر فجأة في الرّجل المجروح، بعد أن احتضنها في صمت. لو تفحّصنا عن كثب كتابات ورسائل سنوات نيتشه الأخيرة، سنخمّن من مضمونها تدفّقا أسرع للدّم، مثلما لو كان تحت ضغط الهواء النّادر: أحسّت قلوب متسلّقي الجبال والطيارين بمثل هذه الضّربات الحادّة الآتية من الرّئتين عندما تكونان تحت ضغط كبير؛ تخون آخر رسائل "كلايست" ذلك التّوتر والخفقان العنيفين، تلك الاهتزازات الخطيرة وطنين آلة لمّا تكون على وشك الانفجار.

ثمّ تطرأ نوبة من نفاذ الصّبر القلق على طبع نيتشه الصّبور والهادئ: " أَغْضَبَ الصّمتُ الطويل كبريائي". هو الآن يريد، يشترط إجابةً مهما كان ثمنها. يطالب بتسريع الطّبع في أقرب وقت ممكن، ويضايق صاحب المطبعة بعديد الرّسائل والبرقيات، كما لو أنّ لبعض التّأخير أهميّة كبرى.

لم ينتظر، وفقًا لمخطّطه، أن يُكمِل كتابةَ عمله "إرادة السّلطة"- Wille zur Macht -، عمله الرّئيسي الأهمّ، لكنّه فصل بفارغ الصّبر أجزاءً منه ورمى بها مثل مشاعل ملتهبة، وسط عصره. اختفت

"نبرة طائر الرّفراف"؛ يوجد في آخر أعماله مثل التّأوّهات الصّامتة للألم المكتوم، وصراخُ غضبٍ ساخرٍ بطريقة غير متناسقة، مُنتَزَعٍ من كيانه بضرباتٍ من سوطِ نفاذِ الصّبر، تَذَمُّرٌ صباحيٌّ بشفاه رغوية وأسنانٍ برّاقة. هو الذي كان غير مبالٍ بالمرّة، راح يستفزّ، بكبريائه "الغاضب" عصره، كي يتفاعل معه في نهاية المطاف، ويطلق صرخة غضب.

وليتحدّاه أكثر، يقصّ حياته في "Ecce Homo"، بأسلوب ساخر سيدخل من خلاله سجلّ التّاريخ العالمي. لم تُكتب قطّ كتبٌ بمثل ذلك الجشع، بمثل ذلك العطش المرضي، ونفاذ الصّبر المحموم التّوّاق لردِّ فعل، كآخرِ منشورات نيتشه الضّخمة: ومثلما كان "خشايارشا" يضرب البحرَ غير الآبه والمتمرّد بصولجانه، يريد هو بالتّبجّح المجنون نفسه أن يتحدّى بعقارب كتبه اللّامبالاة الباهتة المحيطة به. في هذه الرّغبة الملحّة لإجابة يوجد قلقٌ شيطاني، خوف رهيب ألّا يعيش مطوّلا ليرى النّجاح.

ونحسّ أنّه، وبعد كلّ ضربة سياط، يتوقّف لثانية وينحني، شديد الغضب، بقلقٍ بالغ، ليسمع صراخ ضحاياه. لكن لا شيء يتحرّك. لا تصعد أيّ إجابة وسطَ الصّمت "اللّازوردي". يشبه الصّمتُ طوقًا حديديًا حول حلقه، ولا صرخة، ولا حتّى أفظع ما عرفته الإنسانية من صراخ بإمكانه كسره. هو يعلم جيّدا ألّا ربّما سيحرّره من سجن وحدته

المطلقة.

وإذا بغضب مروّع يتملّك عقله المنهك في ساعاته الأخيرة. مثل "بوليفيموس" عندما صار كفيفا، يصرخ ويرمي بكُتلٍ من الصّخور من حوله دون أن يرى ما إذا كانت تصل إلى الهدف؛ وبما أنّ لا أحد معه ليتألّم ويشعر برفقته، يمسك بقلبه المرتعش بنفسه. قتل جميع الآلهة، فإذا به يؤلّه نفسه: "ألا يتعيّن علينا أن نصبح نحن أنفسنا آلهة لنكون جديرين بعملٍ مثل هذا؟"، لقد حطّم المذابح جميعها، لهذا فهو يبني لنفسه مذبحه الخاص: "هو ذا الانسان"، للاحتفاء بنفسه، هو الذي لا أحد يحتفي به، من أجل الاحتفال بنفسه، هو الذي لا يحتفل به أحد.

يكدّس أعظم حجارة اللّغة، ونسمع في القرن دويًّ ضربات المطرقة مثلما لم نسمع دويّا مشابها من قبل؛ يغنّي بحماس أغنيته الجنائزية عن السّكر والتّعظيم، أنشودة أفعاله وانتصاراته. هو في البداية نوعٌ من الشّفق الذي تمتزج به همهمة كبيرة كتلك التي تكون عند اقتراب العاصفة، ثمّ نسمع اهتزاز ضحك عنيف، شرّير، مجنون، فرح اليائس الذي يحطّم الرّوح: إنّها أغنية "هو ذا الانسان". لكن يتسارع إيقاع الأغنية، وتقطع الضّحكاتُ التي تصبح لاذعة أكثر فأكثر صمتَ الجبال الجليدية، وفجأة، يرفع يديه، ترتجف قدمه بحماسة: إنّها الرّقصة بدأت، رقصة على حافّة الهاوية، هاوية سقوطه.

إذا حدّقت طويلا في الهاوية، فالهاوية تحدّق فيك أيضًا.

الرّقص على حافّة الهاوية

تُعتبر الأشهر الخمسة من خريف ١٨٨٨، آخرُ فترات نيتشه الإبداعية، فريدةً من نوعها في سجلّات الإنتاج الأدبي. لم يفكّر أبدًا في فاصلٍ زمني بذلك القصر عبقريٌّ بطريقةٍ مكثّفة كتلك، مستمرّة، مبالغٍ فيها وجذرية؛ وأبدًا لم تفزُ الأفكارُ عقلا بشريًا بذلك الشّكل، ولم تملأه الصّور وتغرقه الموسيقى مثل عقل نيتشه الذي أثّر عليه القَدَر. لا يقدّم التّاريخ الفكري في كلّ الأزمنة، في عظمته، أيّ مثالٍ آخرَ بهذه الغزارة، أو بنشوة الفيضِ المسكِر هذا، أو الغضب المتعصّب للإبداع؛ ربّما حدثَ في مكان قريب جدًّا منه، في العام نفسه، تحت السّماء نفسها، أن "اختبر" رسّامٌ إنتاجيةً متسارعةً مماثلة، والتي بدورها تؤدّي بالفعل إلى الجنون:

في حديقته، في مدينة "آرل"، وبالضّبط في مشفى المجانين، يرسم "فان خوخ" بالسّرعة ذاتها، والشّغف ذاته المتحمّس للنّور، بالهوس الجنوني نفسه للإبداع. بالكادِ ينتهي من رسم واحدة من لوحاته

التي يميّزها اللون الأبيض الناريّ حتى يجري خطّه الرّائع فوق لوحة جديدة، لا مجال للتّردد، ولا للتّخطيط، أو التّفكير. يُبدِعُ كما لو أنّه يُمْلَى عليه، بوضوحٍ وسرعةِ نظرٍ شيطانيّيْن، في استمراريةِ رُؤًى لا تتوقّف. يستغرب أصدقاء "فان خوخ" الذين تركوه أمام حامل اللّوحات منذ ساعةٍ عند رجوعهم عندما يجدونه قد انتهى بالفعل من رسم لوحة ثانية، وأنّه، دون أن يتوقّف يشرع في رسم ثالثةٍ بريشةٍ رطبة وعيونٍ مبتهجة: لا يكترث الشّيطان الذي يمسكه من رقبته إن كان سيتنفّس للحظة واحدة، وما همّه، كفارسٍ مغوار، أن يكسر الجسدَ اللّاهث المحمومَ الذي يمتطيه.

وبالطّريقة نفسها بالضّبط، يخلق نيتشه المؤلَّفَ تلو الآخر، دون توقّف، دون استعادة نَفَسِه، بالاستبصار نفسه، وبالسّرعة نفسها التي لا تعادلها أخرى. عشرة أيام، خمسة عشر يومًا، ثلاثة أسابيع، هي المدّة التي استغرقتها كتابة آخر مؤلّفاته: تصوّرٌ، تنفيذٌ، مخاضٌ، مسودّة وتصميم نهائيّ، تتداخل كلّ هذه المراحل منصهرة كالبرق. لا وجود لفترة حضانة، للحظات استراحة، أو للأبحاث أو التّردد، لا مجال للتّعديلات والتّصحيحات، كلّ شيء على الفور مثاليّ، نهائي، غير قابل للتّغيير، حارق وبارد في آن.

لم يحمل عقل أبدًا توتّرا كهربائيا عاليا كهذا، وبهذه الاستمرارية

الهزّات الأخيرة لكلمته، ولا نشأ ربطٌ للكلمات بسرعة سحرية كتلك؛ تصبح الرّؤية في الوقت نفسه كلمة، والفكرة وضوحًا تامًّا، وعلى الرّغم من هذا الامتلاء الهائل، لا نشعر بأيّ شيء من الألم أو من التّعب: كَفّ الإبداعُ منذ مدّة عن كونه فعلا، عملا، هو فقط "تَرْكُ الأشياء تكون"، وتدخّلٌ لقوى عليا. ليس على الذي تهتزّ الرّوح بداخله إلّا أن يرفع بصره، لترى عيناه إلى أبعد وتفكّران أكثر، وسيدرك (مثل "هولدرلن" في اندفاعه الأخير نحو التّأمل الأسطوري) مساحات هائلة من الزّمن في الماضي وفي المستقبل: بينما هو، هو الذي يتملّكه شيطان الوضوح، يراها بوضوح شيطاني، في متناوله.

كلّ ما عليه فعله هو مدّ يده، يده الملتهبة المستعجلة، ليمسك بها؛ وبالكاد أمسك بها حتّى تتشبّع وتنتفخ صورا، وتهتزّ بموسيقى حيّة ومتحرّكة. وتدفّق الأفكار والصّور هذا لا يتوقّف لثانية واحدة خلال تلك الأيّام النّابليونية بالمعنى الحرفي للكلمة.

تمّ غزو الرّوح هنا، وهي تخضع لعنف ابتدائي. "هاجمني زرادشت"؛ تلك مفاجأة عنيفة دائمًا، وحالةٌ يجد فيها نفسه أعزلا أمام شيءٍ أقوى منه يتحدّث عنه، كما لو أنّ، وفي مكانٍ ما في عقله، جرف وادٍ سدًّا سريًّا من التّعقل والدّفاع العضوي، والذي ينهمر الآن في تيّارات على هذا الكيان العاجز والمجرّد من إرادته بطريقة رائعة. يقول

نيتشه بنشوة، متحدثًا عن آخر أعماله: "ربّما لم يُخلَق شيءٌ بمثل هذا الفيض من القوّة"؛ لكنّه أبدًا لا يجرؤ على القول أنّ القوّة الفعّالة قوّته وأنّها بصدد تدميره. بل على العكس، يشعر كما لو أنّه كان مخموراً، ويشعر فقط كإحساسٍ دينيّ أنّه "لسانُ حالٍ أوامر جاءت من العالم الماورائي"، وأنّه مسكون بطريقة قدسية من قبل عنصرٍ شيطاني سامٍ.

لكن، من سيجرؤ على وصف معجزة الإلهام هذه، مخاض وإثارة هذه العاصفة الإنتاجية التي ضربت بغضب طيلة خمسة أشهر دون هوادة، بما أنّه هو شخصيا قد وصف الحدث في نشوة امتنانه، في القوّة المضاءة للأشياء التي عاشها للتّو؟ لا يسعنا سوى أن ننقل هذه الصّفحة من النّثر، يطرقها البرق بمطرقته:

"هل يوجد، في نهاية القرن التّاسع عشر، شخص يملك فكرة واضحة عمّا كان يسمّيه شعراء العصور العظمى الإلهام؟ لو لم يكن هذا هو الحال، فسأصفه أنا- طالما لازالت هنالك بقايا ولو صغيرة من المعتقد الخرافي، لا يسعنا سوى أن نرفض الاقتناع بأنّنا مجرّد تجسّد، ولسان حال، ووسيط لقوى عليا. مفهوم الوحي، لو كنّا نعني بذلك أنّه فجأة، وبتأكيدٍ ودّقة لا يوصفان، يُصبح شيءٌ مَا مرئيًا، مسموعًا، شيئًا يهزّك في أعماقك، يحرّكك، يؤثّر عليك، فما يصفه

هذا المفهوم هو ببساطة حقيقة.

نسمع، دون بحث، نأخذ دون السّؤال عمّن يمنح، تنيرك فكرة كالوميض، بقوّة قاهرة، في شكل واحدٍ لا تردّد فيه- لم يتعيّن عليّ أبدًا الاختيار. سعادةٌ، فرحةٌ يذوب توتّرها أحيانا في سيلٍ من الدّموع، حيثُ الخطى، لا شعوريا، تارةً تتسارع، وتارةً تتباطأ، اندفاعٌ "خارجَ الذّات"، نحتفظ فيه بالوعي الأوضح لتعدّد الرّعشات الصّغيرة التي تسري حتّى أصابع القدم: عمقٌ في السّعادة لا تتباين فيه ذروة الألم مع ذروة الظّلام، بل تبدو عمدية، مفتعلة، لونًا ضروريا وسط ذلك الفيض من النّور: غريزة العلاقات الإيقاعية التي تغطّي مساحات شاسعة من الأشكال -المدّة، الحاجة لإيقاع بطيء، يكاد هذا يكون معيارَ قوّة الإلهام، والّذي يعوّض بطريقة ما الضّغطَ والتّوتر الذي يسبّبه...

يحدث كلّ هذا في غياب أيّ إرادة متعمّدة اختيارية، وكما هو الحال في إعصارٍ من أحاسيس الحريّة، والتّردد، والقوّة والألوهية... الأبرز هو طابع الصّورة اللاإرادي، طابع الاستعارة: لا نملك أيّ فكرة عن ماهية الصّورة، أو الاستعارة، يحضر كلّ شيء كأقرب، وأرجح، وأبسط تعبير. يبدو فعلا، لنتذكّر كلمةً قالها زرادشت، أنّ الأشياء تُقدّم نفسها من تلقاء نفسها لتخدم الصّور ("...ها هي ذي لخطابك

كلّ الأشياء تهرول، تمدحك: لأنّها تريد أن تطير على جناحك. مع كلّ صورة، أنت تحلّق نحو حقيقة. تُفتّح الكلمة، وكنوز الكلمة أمامك لتعبّر عن "الكينونة" : كلّ "صيرورة" تريد أن تصبح كلمة لتُعلِّمها الكلام...") هذه هي تجربتي عن الالهام: لا أشكّ أنّه من الضّروري الرّجوع آلاف السّنين إلى الخلف لنجد شخصا باستطاعته ان يقول: "وهذه تجربتي أنا أيضا".

في نبرة السّعادة المدوّخة الشّبيهة بالتّرنيمة المنشدة للذّات، وأنا أعلم ذلك، يرى الأطباء اليوم النّشوة، شعورَ من هو على وشك الموت بالمتعة الأخيرة، وكذلك آثار جنون العظمة، ذلك التّمجيد للأنا المميّز للعقول المريضة. لكنّي أتساءل، متى نُحِتت حالةُ النّشوة الإبداعية بمثل هذا الوضوح الماسي من قبل؟

فبالضّبط هنا تكمن المُعجزة الأكثر غرابة والأندر لآخر أعمال نيتشه: كالحلم، ترافق درجةُ وضوحٍ أعلى نوعًا من ذروة السّكر، ذكيّة مثل الثّعابين، في أوجّ قوّتها التي تكاد تكون وحشية أثناء احتفالها بأعياد باخوس. عادة ما تكون شفاه المنتشين، أولئك الذين سمّم ديونيسوس أرواحهم، مُثقَلة، وكلمتهم غامضة، يتردّد صداها في الظّلام.

وكما لو أنّها قادمةً من حلم، تكون تعبيراتهم مشوشّة، معكّرة؛ يملك كلّ من نظروا إلى الهاوية نبرةً أورفية، بيثية، وغامضةً للغةِ من العالم

الآخر، تخشاها حواسنًا بينما لا يفهمها عقلنا كليًا. لكن يبقى نيتشه شديد الوضوح أثناء النّشوة، وتظلّ كلمته ثابتة حادة، قاسية وقاطعة وسط كلّ نيران السّكر.

ربّما لم ينحن أيّ إنسان غيره على حافّة هاوية الجنون بهذا القدر من الوضوح وبرودة الأعصاب؛ بهذا القدر من الجرأة والهدوء: تعبير نيتشه ليس (كما هو الحال عند "هولدرلين"، والرّوحانيين، والبيثيين) مُتفاوتًا ويعتمّه الغموض؛ بل على العكس، لم يكن أبدًا أصدق مما كان عليه في ثوانيه الأخيرة، يمكننا حتّى القول أنّ الغموض قد أضاءه. صحيحٌ أنّ هذا النّور المشعّ هنا خطير، فهو يكتسب الوهج الرّائع والمرضي لـ"شمس منتصف الليل" التي تشرق حمراءَ بلون اللّهب، فوق الجبال الجليدية؛ إنّه ضوء الرّوح القطبي الذي يولّد في عظمته الفريدة الرّعشات. هو لا يُدفّئ لكنّه يخيف: لا يُبهر، بل يقتل.

لا يجذب إيقاعُ الشّعور الغامض نيتشه نحو الهاوية، مثل "هولدرلين"، ولا طوفانٌ من الكآبة: بل يحرقه نوره، رعنٌ من ضربة شمسٍ حارقة جدًّا ومُضيئة جدًّا، سعادةٌ ملتهبة لا تُحتَمل. انهيار نيتشه هو نوع من الموت بالنّور، تفحّمٌ للعقلِ بلهيبه الخاص.

منذ مدّة ليست بالقليلة تجعلُ هذه الأضواءُ الشّديدة القوّة قلبَه يخفق، وتُضرِم به النّار؛ حتّى أنّه يخاف شخصيًا في تبصّره العجيب من

غزارة هذا الضّوء القادم من الأعلى، ومن احتفاءات روحه الوحشية. "تجعلني شدّة إحساسي أرتعد وأضحك". لكن لم يعد بإمكان شيء إيقاف تيّار النّشوة، اندفاع الأفكار الشّبيهة بالصّقور التي تلوّح من حوله صاخبةً نهارًا وليلا، ليلا ونهارا، ساعةً بعد ساعة، حتّى يكاد الدّم يفجّر صدغيه. أثناء الليل، يخفّف الكلورال عنه قليلا بأن يبني سقفا وَهِنًا واقيًا - النّوم - ضدّ الغزو الصّاخب للرّؤى. لكنّ أعصابه شبيهة بخيوط معدنية محترقة: ويتحوّل كلّ كيانه إلى كهرباء وضوء، ضوء نابض، مشعّ مليء بالومضات.

فهل يجب فعلا الاستغراب من كونه قد فقد الاتّصال مع الحقيقة وسط هذا الاعصار السّريع من الالهام، وهذا التّدفق المستمر للأفكار المذهلة، ومن أنّ نيتشه، بينما تمزّقه كلّ شياطين الرّوح، لم يعد يعرف من يكون، ومن أنّه هو، اللّامحدود، لم يعد يعرف حدوده؟ منذ فترة طويلة بالفعل (منذ أن أحسّت بأنّها تطيع إملاءَ إرادةِ قوى عليا، ولم تعد تطيعه هو)، صارت يده تخشى أن تُوقّع في أسفل رسائله باسمه الخاص: "فريدريك نيتشه".

لا بدّ وأنّ حفيد القسّ البروتستانتي في "نومبورغ" قد بدأ يشعر بطريقة غامضة أنّه، ومنذ مدّة، لم يعد هو من يعيش أشياءَ رائعة، بل بدلا عنه كيانًا آخر لا يحمل بعد اسما، قوّة عليا، شهيد آخر للإنسانية.

ولهذا، لم يعد يوقّع رسائله الأخيرة سوى بأسماء رمزية: "الوحش"، "المصلوب"، "المسيح الدّجال"، "ديونيسوس"، منذ أن أحسّ أنّه يشكّل مع القوى العليا كيانًا واحدا، ولم يعد يعتبر نفسه شخصيا انسانًا، بل قوّةً، وَمهِمّة. "لستُ انسانًا، أنا ديناميت". صرخ أثناء ذروة نوبة غطرسة وتكبّر - hybris، -، وسط الصّمت الفظيع: "أنا حدثٌ من أحداث التّاريخ العالمي، يقسم تاريخ البشرية إلى قسمين".

تمامًا مثل نابليون في موسكو عندما كانت تحترق، والشّتاء الرّوسي السّرمدي أمامه، وحوله الأشلاءُ والبقايا البائسة لأقوى الجيوش على الإطلاق، ظلّ ينشر أعظم التّصريحات وأشدّها لهجة (عظيمة لدرجة تُلامِسُ فيها السّخف)، راح نيتشه يؤلّف عاجزًا، في الكرملين المحترق داخل دماغه، بأشلاء وبقايا أفكاره، المنشورات الأفظع: ها هو ذا يأمر امبراطور ألمانيا أن يأتي إلى روما من أجل إعدامه بإطلاق النّار، ويدعو القوى الأوروبية للقيام بعمل عسكري ضدّ ألمانيا التّي يريد حبسها في مِقْطَرةٍ حديدية.

لم يحدث أبدًا أن احتدم غضب نهاية العالم بشكلٍ أكثر ضراوة في الفراغ، ولم يسبق أبدا أن دفع التّكبر عقلا فوق كلّ الاعتبارات الدّنيوية كما حدث معه. تدوّي كلماته مثل ضربات المطرقة ضدّ بنية الصّرح العالمي: يطالب بأن يعدّل التّقويم السّنوي، وألّا تكون بدايته

ميلاد المسيح، بل ميلاده هو، المسيح الدّجال؛ يضع صورته فوق جميع شخصيات كلّ الأزمنة، حتّى هذيان نيتشه المريض أكبر من كلّ هذيان من سبقوه ممّن ظُلِّلت أرواحهم، هنا أيضا، مثلما هو الحال في كلّ مكان، تستحوذ عليه المبالغة الأشدّ فتكًا.

لم يُهاجَم مبدعٌ من قبل طوفانِ إلهام كالذي اجتاح نيتشه في ذلك الخريف. "لم يُنجَز قطّ عمل أدبي مماثل، ولم يحسّ أبدا أو يُعذّب أيٌّ كان على هذا النّحو: وحده إله، ديونيسوس، يتعذّب هكذا"؛ هذه الكلمات التي يقولها في بداية جنونه صحيحة بشكل رهيب. تأوي هذه الغرفة الصّغيرة الواقعة في الطّابق الرّابع، وكهف "سيلس ماريا"، في الوقت نفسه مع الرّجل المريض ضحيّة العصبية، فريدريك نيتشه، أجرأ الأفكار، أروعَ كلمات القرن التي عرفها أثناء تدهوره: لجأ العقل المبدع إلى هذا المكان تحت السّقف المنخفض الذي حرقته الشّمس، وها هو ذا يصبّ كلّ كماله على رجل وحيد بائس، لا اسم له، خجول وضائع – وكلّ هذا أكبر بكثير ممّا يمكن لإنسان أن يتحمّله وحده.

وفي هذه المساحة الضّيقة، تخنقه الضّخامة، تتأرجح الرّوح الدّنيوية وتخفق تحت قوّة البرق والوحي والالهام الذي يجلده. تمامًا مثل "هولدرلين" في عماه الرّوحي، يحسّ بأنّ ربًّا فوقه، ربٌّ–شعلةٌ يستحيل تحمّل نظرته، نَفَسَه يحرق... دائما، يحاول الكائن المسكين المرتجف

أن ينهض ليرى وجهه لكنّ الأفكار تهرب منه بسرعة غير متّسقة... إذ أنّه، هو الذي يشعر، ويبدع أدبيا، ويتعذّب من هذه الأشياء التي تفوق الوصف... أليس هو، في ذاته ربّا... أليس ربّا جديدا للعالم، منذ أن قتل الآخر؟... من يكون؟... المصلوب، أم الرّب الميت، أم الرّب الحي؟ ربّ شبابه، ديونيسوس... أم أنّه كلاهما في الوقت نفسه، ديونيسوس المصلوب؟...

تتعكّر أفكاره أكثر فأكثر، ويصبح الطّوفان أشدّ صخبا بسبب فيضٍ في النّور... هل ما زال ذلك النّور بالفعل نورًا؟ ألم يصبح موسيقى؟ بدأ الصّدى يعمّ الغرفة الصّغيرة في الطّابق الرّابع من شارع "ألبرتو"، تشعّ جميع الكواكب، وتتغير السّماوات كلّها جذريا... أوه! يا لها من موسيقى! تنهمر دموعه على لحيته، ساخنة وحارقة... أوه! يا له من لطف إلهي، يا لها من سعادة زمرّدية! والآن، يا له من وضوح بالغ! في الأسفل، في الشّارع، يبتسم له الجميع... عندما ينهضون لتحيّته! وها هي ذا بائعة تبحث في سلالها عن أجمل حبّات التّفاح... ينحني الكلّ ويركع أمامه هو، قاتل الرّب، في سعادة غامرة، سعادة... لم؟ نعم، هو يعرف، يعرف ذلك جيّدا، ذلك لأنّ المسيح الدّجال أتى، ويغنّي الجميع "أُوصَانا! أُوصَانا!" يدوّي كلّ شيء، العالم يدوّي من السّعادة والموسيقى... ثمّ فجأة يصمت كلّ شيء.... شيءٌ ما سقط... إنّه هو،

للأسف! هو من سقط أمام منزله.... يساعده أحدهم على النّهوض...
هو الآن مجدّدا في غرفته.... هل نام مطوّلا؟ تسود عتمة حالكة ...
البيانو هنا... موسيقى، موسيقى! ثمّ فجأة، في الغرفة رجال، أليس
هذا "أوفربيك"؟ لكنّه في "بازل"، والآخر في... أين هو يا ترى؟ لم
يعد يعرف... لماذا هو ينظر إليه بهذه الغرابة، بهذا القلق؟ بعد ذلك
تمرّ قاطرة، قاطرة... يا له من صوت تصدره السّكك، بغرابة! وكأنّها
تريد أن تغنّي... نعم، إنّها تغنّي... أغنية مسيّر الجندول، ويغنّيها
معها... يغنّيها في الظّلمات السّرمدية...

ثمّ بعدها بفترة طويلة، يغنّيها في مكانٍ مختلف تماما، في غرفة دائمة
الظّلمة، لن تشعّ الشّمس فيها من جديد. لا مزيد من النّور، سواء في
الدّاخل أو في الخارج. في مكان ما، تحته، لا يزال أشخاص يتحدّثون.
امرأة (أليست شقيقته؟ لكنّها بعيدة جدّا، في بلد اللّاما؟) تقرأ له
كتبا بصوتٍ مرتفع... كتب؟ ألم يكتب هو أيضا كتبا؟ يجيبه أحدهم
بلطف. لكنّه لم يعد يفهم ما يقال له. ذاك الذي انفجر في روحه
إعصار مثل ذاك، أصمّ بشكل نهائي لكلّ كلمة بشرية. ذاك الذي نظر
الشّيطان في عينه، أعمى إلى الأبد.

أن تكون عظيما، هو أن توجَّه.

معلم الحرية

"سَأُفْهَمُ بعد الحرب الأوروبية القادمة".

تتواجد هذه الجملة التّنبؤية بينَ آخر كتابات نيتشه. وبالفعل، لن يُفهَم المعنى الحقيقي لكلمات هذا المُحذّر العظيم، والضّرورة التّاريخية التي يعبّر عنها إلّا عند حالة التّوتر وعدم اليقين والمخاطر التي تواجد فيها عالمنا مطلعَ القرن الماضي: يبدو أنّ الضّغط كلّ ضغط الثّقل الأخلاقي لأوروبا قد أُفرغ في هذا المبدع المذهل، الحسّاس لأدنى تغيّرات الطّقس، والمتنبّئ بنذير العاصفة، والذّي تحوّلت عصبيّته إلى عبقرية، والعبقرية إلى حروف ملتهبة، وهكذا نشهد أعظم إعصار فكري يسبق أفظع إعصار تاريخيّ.

رأت بتفكيرها نظرةُ نيتشه الثّاقبة، والسّابقة لزمانها الأزمةَ قادمةً، في حين استدفأ الآخرون في منازلهم بالعبارات التي تبثّ البهجة: كان هو قد عرف سببها: "الجَرَبُ القومي للقلوب، وتسمّم الدّم هو ما جعل الشّعوب في أوروبا تنعزل كما لو أنّها كانت تضع نفسها في الحجر

الصّحي"، "قومية الأبقار ذات القرون"، دون أدنى فكرٍ سامٍ غير الفكر الأناني المستمدّ من التّاريخ، بينما كانت جميع القوى تحثّهم بعنف وتدفعهم نحو اتّحاد مستقبلي وأرقى. يخرج الإعلان عن كارثة قادمة بغضبٍ من فمه، عندما يرى المُحاولات المتشنّجة المبذولة من أجل "الإبقاء على نظام الدّويلات في أوروبا"، وللدّفاع عن أخلاقية أُسسها المصالح والأعمال فقط؛ "لا يمكن لهذا الوضع السّخيف أن يستمرّ طويلا"، كتب بحروفٍ من نارٍ على الجدار، "طبقة الجليد التي تحملنا أضحت رقيقةً جدّا: نحسّ جميعنا بالرّياح المُذيبة السّاخنة والخطيرة".

لم يشعر أحدٌ كما شعر نيتشه بالتّصدّع الحادث في الصّرح الأوروبي؛ ولم يصرخ أحد في فترةٍ ملأها الرّضا المُتفائلُ عن الذّات في وجه أوروبا بهذا الكمّ من اليأس، أن تَهْرُبَ، أن تهرب نحو الصّدق والوضوح، أن تلجأ إلى أسمى حريّة فكرية. لم يشعر أحد بالقوّة التي شعر بها أنّ زمنًا قد انتهى لتوّه، ومات، وأنّ شيئًا جديدًا يُحضّر بقوّة وسط الأزمة: وها نحن ذا نتعرّف معه الآن على ذلك.

هذه الأزمة المميتة، كان قد استشعرها بطريقة مميتة، وعاشها مسبقًا بطريقة مميتة: وهنا تكمن عظمته وبطولته. كلّ التّوتر الهائل الذي عذّب عقله إلى أقصى الحدود، والذي في الأخير فكّكه قطعةً قطعةً،

كان في الحقيقة يوحّده مع عنصر أسمى: ولم يكن كلّ ذلك سوى حمّى عالمنا قبل أن يفقأ الخراج. تستبق بتحليقها دائمًا طيورٌ منذرةٌ بقدوم العاصفة، والتي هي رسائلُ من الرّوح، الكوارثَ العظمى؛ وهناك جزءٌ من الحقيقة في اعتقادِ الشّعب الغامض الذي يُظهِر في السّماوات مذنّباتٍ على المسار الدّامي قبل الحروب والأزمات في العالم.

كان نيتشه فانوسا في هذا العالم، كان البرقَ الذي يستبق العاصفة، والاضطراب العظيم الذي يحتدم على قمّة الجبال قبل أن ينزل الإعصار إلى الوديان؛ لم يحسّ أحدٌ مُسبقًا، بمثل هذا اليقين التّنبّؤي، بكلّ تفاصيل ولا عنفِ الكارثة التي كانت على وشك أن تصيب ثقافتنا، مثله هو.

لكن، هنا تكمن مأساةُ الرّوح الأبدية، في استحالة إيصال مجالِ الوضوح والتّأمّل السّامي الخاصّ به إلى الجوّ الثّقيل والمغلق لعصره، تكمُن أيضًا في بقاءِ الحاضر غير مبالٍ، وغير متفهّم عندما تلوّح فوقَه علامةٌ تحوم في السّماء وفي الرّوح، وعندما يسمع حفيف أجنحة النّبوءة. حتّى أكثرُ مستبصري القرنِ عبقريةً لم يكن واضحًا بما يكفي كي يتمكّن عصرُه من فهمه: فمثل عدّاء الماراثون الذي، بعد أن اجتاز لاهثا المسافة الطّويلة التي تفصله عن أثينا، لم يتمكّن من إعلان هزيمة الفُرس إلّا من خلال صرخةِ نشوةٍ عالية (والتي أُصيب

بعدها بنزيف دموي قاتل)، تمكّن نيتشه من التّنبؤ بكارثة ثقافتنا الرّهيبة، لكنّه لم يتمكّن من منع حدوثها. فقد صرخ في وجه حقبته صرخة انتشاءٍ هائلة لا تُنسى: انكسرت بعدها الرُّوح فيه.

في نظري أنا، أفضل قارئيه، "جاكوب بوركهارت"، هو من يعرّف بأفضل طريقة ما قدّمَه حقيقةً عندما كتبَ عن مؤلّفاته أنّها "كانت تنمّي الاستقلال في العالم". وقد كتب بالفعل هذا الرّجل المطّلع صاحب الثّقافة الواسعة: الاستقلالَ في العالم، وليس استقلال العالم. إذ لا وجود للاستقلال إلّا عند الفرد، فقط على الصّعيد الشّخصي، وهو لا يزيد مع العدد، ولا يزيد أيضا بعدد الكتب أو مقدار الثّقافة. "لا وجود لعصر بطولي، يوجد فقط ناسٌ أبطال".

الفرد وحده هو من يدخِل الاستقلالَ إلى العالم، ودائمًا لنفسه، هو وحده. لأنّ كلّ عقل حرّ هو إسكندرٌ، يغزو بتهوّرٍ جميع المقاطعات وجميع الممالك، لكن لا ورثة له؛ ومآل إمبراطورية فارغة دائما هي أن تصبح فريسةً للورثة من ملوك الطّوائف والمُعجَبين، والمعلّقين ورجال العلم، الذين هم في الحقيقة عبيدٌ للحرف.

ولهذا السّبب فإنّ استقلالية نيتشه العظيمة لا تمنحنا عقيدةً (كما يظنّ المعلّمون) كهِبَة، بل جوًّا، جوًّا شديدَ الصّفاء، بنقاءٍ سامٍ يتخلّله شغفٌ ذو طبيعة شيطانية تتفرّغ على شكلِ عواصف ودمار. عندما

نتعامل مع مؤلّفاته، نشعر بالأوزون، بهواء أساسيّ، خالٍ من كلّ ثقل، من كلّ ضبابية ومن كلّ جاذبية؛ نرى بحريّة أمام هذا المشهد البطولي حتّى أعالي السّماوات، ونتنفّس هواءً متفرّدا، شفّافا حيويّا، هواء خُلِقَ من أجل القلوب الشّديدة القويّة، والعقول الحرّة.

تبقى الحريّة المعنى النّهائي لنيتشه - معنى حياته ومعنى سقوطه: تمامًا مثلما تحتاج الطّبيعة إلى العواصف والأعاصير لإثارة قوّتها الزّائدة في تمرد عنيف ضدّ استقرارها الذّاتي، يحتاج العقل من وقتٍ لآخر إلى رجل شيطاني، تقف قوّته العليا ضدّ مجتمعِ فكرٍ ورتابةِ الأخلاق. يحتاج إلى رجل يُدمِّر ويتدمّر، لكن، ليس هؤلاء المتمرّدون البطوليون أقلّ تأثيرًا بصفتهم نحّاتين، ومُشكّلين للعالم من الخالقين الصّامتين. لو أظهرَ بعضهم امتلاءَ الحياة، فآخرون يبرزون نطاقها الواسع الذي لا يتعذّر تصوّره؛ لأنّنا ندرك عمق الشّعور فقط في الطّبيعة المأساوية. ووحده التّطرف هو من يسمح للبشرية بالتّعرف على الاعتدال.

الفهرس



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

زوروا موقعنا الإلكتروني

www.ibda3eg.com

info@ibda3eg.com

publishing@ibda3eg.com

dreidibrahim@gmail.com

نيتشه

وحده ستيفان زفايغ قادر على البحث عن المعنى في عدمية فريديريك نيتشه. وعندما يكتب، عن حياة تبقى غريبة مهما حاولنا فهمها، نلمُّ معه عالما كنّا نظنّ معرفته، فيلقي بضوءٍ دافئ هو الباحث الأبدي عن الحقيقة، لينير الدّرب ونُساقُ معه رفقه هذا العقل المُتفرّد .....

في هذه السّيرة الأدبية التي لا تُعنى بالتّواريخ بقدر اهتمامها بالرّجل خلف القناع، نعيش الهوس الذي كان عليه شغف الصّدق عند كاتب الرّائعة الخالدة "هكذا تكلّم زرادشت"، ونتبعه في بحثه عن الذّات حينما يلجأ إلى الموسيقى قبل أن يحاولِ الرّقص فوق الهاوية كتشبّثٍ أخيرٍ بحياة ظلّ مقتنعا من فراغها من المعنى.

لعلّ الحياة ليست، بعد كلّ شيء، فقط مأساة بلا شخصيات.

COVER DESIGNED BY @
RB





